محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم

منهج ورسالة - بحث وتحقيق

الجزء الرابع

تأليــف:

فضيلة الشيخ / محمد الصادق إبراهيم عرجون

عميد كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سابقًا

أبيض

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد ﷺ بين ميلادين

(ميلاد بشرية وميلاد رسالة)

تأثر الروايات بجو المجتمع الذي ولد وأرسل فيه محمد ﷺ:

الجو الذي بدأت فيه نبوة محمد ﷺ، وأشرقت في أفقه رسالته، بكل ما حوى من بيئة على حالها التي كانت عليها من طبيعة جبلية صحراوية جافة قاسية، يعيش فيها مجتمع بشري بأخلاقه وعاداته، وجهالاته، وبؤس عيشه، وضيق الحياة في وجهه، وتمزق وشائجه الاجتماعية، وتفاهة تفكيره، وبلادة حسه، وجمود مشاعره العقلية، وانغماسه في حمأة وثنيات مزرية، وانصرافه عن النظر في العلم والمعرفة وإخلاده إلى الأرض يعض صخورها ويتعبد لأحجارها، ويهيم في جنبات وديانها ومفاوزها، ويتوثب ذرى أجْبُلها تطلعًا إلى أقصى آماله وأعظم أمانيه إلى نبع ماء، أو منبت كلأ، لا يجاوز نظره مواطئ أقدامه، لا يحس بأحداث الحياة بعيدة عن أرضه ومضارب خيامه، ولا يشعر بتقلبات (التطور) في الأمم والشعوب من حوله، تشغله الحروب الداخلية المتواصلة، تسفك فيها الدماء، وتنهب الأموال، وتُرَمَّل النساء سبايا، وتُيَتِّمُ الأطفال

حيـارى، وتتفانى القبائل، وتعيش فيها بقية السـيف متربصة للآثار، ويفقد الأمن مع فقد الاستقرار ـ هو الجو الذي ولد فيه محمـد بن عبد الله بن عبد المطلب قبل أربعين سـنة من بعثته نبيًا ورسـولًا، من أبوين في أعز أرومة قرشـية[1]، بكل ما لهذا الجـو من خصائص طبيعية، واجتماعية، وفكرية، وخلقية في جماعاته وأفراده.

وقـد خلع هذا الجـو سـماته ومعالمه ومظاهـر الحياة فيه علـى ميلاد محمد البشـري الكثيـر من المبالغـات المغرقة، والروايـات التي تصوغها مؤثرات البيئة في قصص المعجزات والخوارق والآيات والأعاجيب التي رويت وكتبت.

وتُحُـدِّث بهـا بعد تشـريف الحيـاة بنبوته ورسـالته، كما حققنـاه فـي بحث (محمـد ﷺ من نبعتـه إلى بعثتـه) وبيَّنا الصحيـح الذي أثبتتـه الروايات الصادقة الواعيـة، وتركنا ما أرسـلته العواطف إرسـالًا دون سـند قوي يدعمـه، وأوضحنا هنـاك أن سـيرة سـيد الوجـود محمد ﷺ ليسـت فـي حاجة إلـى هذا النحو العاطفـي من الروايات المتهافتـة التي لا يقيِّم قناتهـا العلم وصـدق الرواية، وذكرنا أن ما صـح تاريخيًا عن ولادته وحياته الكريمة قبل نبوته، فيه أعظم غنية عما سـواه، بيانًا لكمال بشـريته، وتصويرًا لمدى مـا منحه الله تعالى من

(١) الأرومة: الأصل. (المجلة)

فضائل الإنسانية في خلائقه وأخلاقه، فكان بها أكمل البشر إنسانية، وأرفعهم في فضائلها فضيلة، وأشرفهم في أمجادها مجدًا وشرفًا، وأزكاهم نفسًا، وأطهرهم قلبًا، وأصفاهم روحًا، وأعلاهم في المكارم كعبًا.

ووحدة الجو بكل ما حوى من خصائص في زمن ميلاد بشرية محمد ﷺ وزمن ميلاد رسالته، وبدء نبوته أضفى على ميلاد رسالته، وأحداث بدء الوحي بنبوته، أمورًا شبيهة بما أضفاه على ميلاد بشريته من روايات حملت كثيرًا من سمات البيئة ومظاهرها التي لم تكن قد تهيأت لفهم حقائق النبوة والرسالات الإلهية، فقالت، وتقوَّلت، وحرفت وتأوَّلت، وجمحت وشطت، وبالغت وتزيدت، وأغرقت وأفرطت، وفرطت وأهملت، وجهلت وتجاهلت، وغفلت وتغافلت، واعتدلت وتعرَّجت، واستقامت ومالت، وتاهت الحقائق في منحنياتها مما يفرض على الباحث في تعاريج هذه المنحنيات ضروبًا من النظر الصبور، وضروبًا من البحث المتعمق الجسور، وضروبًا من الإدراك العليم، حتى يستطيع التقاط الحقائق من بين ركام الروايات، ليضعها نقية موحدة في إطار النبوة، متمثلا قداستها بما وجب لها من العصمة التي لا يميل بها اختلاف الروايات دون أن يستسلم عقله لطنطنة رنين أسماء الرواة، وهدير شهرتهم في علو الإسناد.

حاجـة الروايات إلى دقة النظر الناقد لتمييز الصحيح من الزائف:

بَيْـد أن ما أُضفي على أحداث الميلاد البشـري من روايات عاطفية تُخُيِّلتْ فتوسـعت لم يجـد من عناية العلماء وجهابذة النقدة، مثل ما أُضفي على أحداث ميلاد الرسـالة؛ لأن أحداث الميلاد البشـري لا يضر فيها التكثر العاطفي إلا بمقدار بعده عـن منهج الصـدق في تصويـر الحقائق التاريخيـة؛ لأن حياة المصطَفَيـن للنبـوة وتبليـغ رسـالات الله إلى عبـاده يجب أن تحـاط من بدئها إلـى نهايتها بجو من الصـدق الطهور، تبيانًا لمناهجهم في الحياة التي لا تقبل التزيد في روايات الأحداث، ولا ترضى عن التفريط في بيان ما كانوا عليه من سلوك وسمت يعكس بواطنهم على ظواهرهم توحيدًا لعلانيتهم وسريرتهم، ليؤدوا إلى الحياة صورتهم كاملة في نبوتهم، ويؤدوا إلى الناس مناهجهم في الدعوة إلى الحق في مهايع تبليغ رسالات ربهم، وطرائق هدايتهم إلى معالم الحياة الكريمة الصالحة.

ميلاد الرسالة الإلَهية لا يقبل وثبات العواطف:

أمـا أحداث ميلاد الرسـالة وبدء الوحي فهي أسـاس النبوة ودعائـم الرسـالة، والنبـوة هي الحقيقـة الإِلَهيـة الكبرى في ميلاد جديد للنبي، ميلاد روحاني، يصور ـ أساسًـا ـ شخصية النبـي بوصفـه الجديد، ويصـوِّر حياته مـع ربه الـذي اختاره لتلقِّي كلماته ووحيه، ويصور حياته مع نفسـه التي اصطفاها

الله لتكـون منزل أمره ونهيه، والرسـالة هـي الحقيقة الإلهية العظمى في ميلاد جديد للرسـول، فوق ميلاد روحانية النبي، يصور شخصية الرسول بمظهر ولادته الجديدة، ويصور حياته مع ربه الذي اختاره سفيرًا بينه وبين من شاء من عباده، يبلِّغهم عنـه ضـروب هدايته، ويصور حياته مع نفسـه رسـولًا يخرج النـاس من ظلمات الجهالة والضلالة إلى نـور العلم والهداية، ويصـوِّر حياته مع الناس في طرائق دعوتهم إلى الله، ودعوتهم إلى الحق والخير.

فليس في هذه الأحداث التي يبدأ بها ميلاد النبوة والرسالة مجال -أي مجال- لغير الحق والصدق، وليس فيها مجال -أي مجال- للتزيد والتأويل المحرف للحقائق تحريفًا يبعدها عن سـاحة القداسـة التي هي وصف ذاتي للنبوة والرسالة، وليس فيها مجال -أي مجال- لسبحات الخيال، وتخيلات الأفكار، وابتداع الآراء.

وميلاد النبوة والرسـالة ببدء الوحي من أحداث الغيب التي أحاطها الله تعالى بقداسـة تحميها من تقحم التقول فيها بغير علم، والعلم بها قصره الله على أخبار الأنبياء والمرسلين، فلا مجال فيه للعقل وتجارب العلم.

فالروايـات التـي جاءت بأنبـاء ميلاد نبوة محمد ورسـالته تحتـاج إلى نظر فاحص، وتأمل أمين، وتثبُّت في صحة النقل، ولا سـبيل إلـى قبـول ما لـم يثبت إسـناده إلى النبـي ﷺ من

وقائعها وأحداثها، والذي يثبت منها بإسناد صحيح يجب أن يفهم في ظل ما يجب للنبوة والرسالة من قداسة العصمة عن شطحات العقول، وشطط الأفكار، فهمًا لا يخرجها عن دائرة الكمال الإنساني.

ميلاد البشرية قد يحتمل التصورات العاطفية:

ومن ثَمَّ يتضح الفرق الشاسع بين النظر في روايات ميلاد بشرية محمد ﷺ وروايات ميلاد نبوته ورسالته.

فإشراق الوجود البشري كان ميلادًا لـ(محمد بن عبد الله بن عبد المطلب) في مهد أمه السيدة آمنة بنت وهب الزهرية القرشية، وإشراق الوجود النبوي ببدء الوحي كان ميلادًا لـ(محمد رسول الله) وخاتم النبيين صلوات الله عليه.

وبين الميلاد في الفضل والشرف ما بين طفل خرج إلى الدنيا كما يولد أي طفل- في أشرف وأكرم بيت من بيوتات أعز قبيل في العرب- ثكل أباه قبل أن يتشرف الوجود بطلعته، وكان هذا الثكل جرحًا في قلب جده عبد المطلب؛ لأن عبد الله أبا محمد ﷺ كان أعز وأحب بني عبد المطلب عند عبد المطلب، فكان ميلاد محمد ﷺ بلسمًا لجرح الثكل في قلب هذا الجد الذي أخذت منه السنون، فلم تُبق له إلا قلبًا يعمره حب بنيه الذين عزَّ بهم يوم أن سامته قريش خسف الذل في أمر زمزم.

وقد استقبل عبد المطلب حفيده ـ الذي ملأ فراغ قلبه من

مـكان أبيه إذ بُشِّـر به، ومعـه بنوه بالحـب والبهجة، فاغتبط بميلاده شاكرًا، وسماه (محمدًا).

وبين ميلاد رسالة عامة خالدة، اختار الله تعالى رسولها بعلمه وحكمته، وخلع عليه رداء تعظيمه، فجعله خير رسـول لخير أمـة أخرجت للناس، وختم به نبوته، وعمَّم برسـالته شـرائع وحيـه، وخلَّد بدعوته الدعوة إلى وحدانيته، وشـرف به ملكه وملكوته، وأفاض عليه من خواص غيبه في أخلاقه وخلائقه ما تعجز الأقلام والألسـن عن الإحاطة بشـيء من فضله، والله ذو الفضل العظيم.

العلم هو العنوان الأول في رسالة محمد ﷺ

بدأت رسالة محمد ﷺ بأول وأعظم عنوان للعلم والمعرفة، كتبه القدر الحكيم على أبرز لوحات التاريخ، يوم أن قالت السماء بنموذج الرسالات الإلهية الأعلى محمد ﷺ: (اقرأ) هكذا مطلقة، بصيغة الأمر المطلق الذي لا يتقيد بمقروء معين من علوم البشر ومعارف فنونهم وأفكارهم، ولا تتقيد بقراءة من كتاب مكتوب بما عرف الناس من طرائق الكتابة وأساليب تقييد العلم والمعارف الإنسانية، ولا تتقيد بزمن تقع فيه القراءة، ولا تتقيد بمكان معين تجري القراءة بين جنباته.

فهو طلب قراءة فحسب، والحقائق المطلقة لا يمكن أن تتحقق في واقع الحياة والوجود الحسي إلا في صورة من صور جزئياتها، وليس هنا مقروء معين يتحقق به طلب القراءة في جزئية منها.

بدء رسالة محمد ﷺ بطلب القراءة أعظم شهادة على مكانة العلم فيها:

فهذا الطلب المطلق بهذه الصيغة (اقرأ) على ما احتف به من أحوال مفاجأة الوحي وجوّها صريح في تسجيل العنوان الأول لرسالة محمد ﷺ في لوحة الحياة بأخص خصائص

خلودها، وشمولها شمولًا كاملًا، لا يفوته جيل من الناس، ولا زمن من الأزمان، ولا مكان من الأمكنة، ولا يندّ عنه علم من العلوم التي عرفها البشر في منحدرات (التطور) الإنساني، أو التي سيُفتح إلى معرفتها سبل لا عهد للعقل الإنساني بها فيما مضى من السنين والأحقاب، ولا تذهب عنه معرفة من المعارف التي كانت في ماضي الحياة، أو التي ستكون في مستقبلها.

ومعناه (كن قارئًا) فالمقروء في رسالة محمد ﷺ تحت عنوانها الأول (اقرأ) مقروء لا يقرؤه الناس، ولكنهم يقرءون عنه، وعلم لا يعلمونه تعلمًا، ولكنهم يعلمون عنه، ومعرفة ليست في متعارف معارف الناس، ولكنهم يتطلعون إليها.

هو علم حقائق الموجودات المكتوب في كتاب (الكون) وسِفر الحياة، وهو معرفة عناصر الكائنات مسطورة في صحف الطبيعة.

وقد تكرر هذا الأمر المطلق -في أول لقاء يَقَظِيّ بأمين الوحي جبريل عليه السلام، وهو اللقاء الذي بدأت به الرسالة- ثلاث مرات، بصورة واحدة، ولما جاء في المرة الرابعة مقرونًا بما يقرأ لم يجئ متعلقًا بطلب القراءة على أنه هو المطلوب تحقيق قراءته بالأمر بطلبها، وإنما جاء مؤكدًا لإطلاق الأمر وتحقيق القراءة في ذاتها على المعنى الذي ذكرناه.

فالنبي ﷺ في رده على هذا الطلب الغريب على حياته

وطبيعة بشريته الخاصة نفى عن نفسه أنه يعرف القراءة، لا طبيعة وجبلّة، ولا تعلُّمًا وكسبًا، فهو أمي لم يسبق له قط أن قرأ ولا تعلم القراءة، ولا خطّ بيمينه كتابًا، ثم استبان من مُخاطبه أمين الوحي (ماذا يقرأ) و(كيف يقرأ).

وليس وراء الأمر بالقراءة في أول وأبرز عنوان في إطار رسالة محمد ﷺ إلا أن يستعين -على تحقيق ما لم يعرف، ولا هو في طوقه- باسم ربه، وقد أبرز الاسم الكريم متعلقًا تعلقًا مباشرًا بفعل الأمر المطلق بالقراءة، مضافًا إضافة تكريم وتشريف خاصة بخطاب مَنْ طلب منه أن يقرأ ما لم يخطه قلب بيمين إنسان، فقيل له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ (العلق: ١)

وفي هذه الإضافة التكريمية لون من الحفاوة السابغة، تبث الطمأنينة ويقين الإيمان في قلب القارئ العظيم الذي سبقت له العناية، فتولته رعاية الربوبية وتعهدته بتربيتها الخاصة، وهو لا يعلم أنه المقصود، وأعدته بتعليمه وتأديبه، تعليمًا إلهيًا، وأدبًا ربانيًا، لم يثافن معلمًا قط[٢]، وهيَّأته لما يراد به، وما يراد منه، وهو لا يعلم أنه الرسول خاتم النبيين، فلا نبي بعده

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا

---

(٢) الثفنة: الرُكبة، ومنها جاء قولهم ثافنه أي جلس قربه كأنه يلصق ركبته بركبته، والمراد لازَمَهُ. (المجلة)

ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(الشورى: ٥٢)

وعموم المشيئة في الآية الكريمة مخصوص به ﷺ، ولكنها جاءت كما هي في الآية لتمثل إطلاق الألوهية في كمال إرادتها و﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾

(الأنعام: ١٢٤)

معنى طلب القراءة ومقصودها من النبي الأمي:

ولباب المعنى: كن قارئًا إعجازًا، ولو لم تكن من القارئين تعلمًا، اقرأ مستعينًا باسم ربك الذي أعدك بتربيته معلمًا للدنيا، ولا تلتفت إلى الأسباب، واذكر بقلبك وروحك وعقلك مَنْ خَلَقها وسببها، فأنت معلَّم بعلم مِنْ عندنا، عليم بعلم غير مكتوب في كتاب، كما يكتب العلماء المعلَّمون، وأنت قارئ كتابنا الذي كتبناه بقلم كلمتنا الخالقة المبدعة، في صحفنا التي خطَّها قلم قدرتنا في لوح الأزل، لتكون هذه القراءة خصيصتك إلى الأبد ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١) والخَلْق من الله تعالى إبداع ما لم يشهد الوجود، وإيجاد ما لم يكن له قبل ذلك شهود.

وهذا العموم في المنفعل بالخلق يجعل فعل الخلق المطلق عن التقيد بذكر مفعوله متشوَّفًا لمتعلقه، لتحقيق معناه، وهو

صالح لكل مخلوق، وليس منها فرد جنس أو فرد نوع، أو فرد شـخص، بأولى أن يكون متعلقًا لفعل الخلق المطلق -لفظًا- من غيـره دون سـائر المخلوقات، أجناسًـا وأنواعًـا وأفرادًا، فهي كلها كالمذكورة في تعلق فعل الخلق بها، وهذا الإطلاق مغايـر للإطلاق في فعـل طلب القراءة الذي بدأت به الرسـالة الخالـدة؛ لأن فعل القراءة هناك لا يتطلـب التقييد ولا يقبله، وفعل الخلق هنا يستدعيه عامًا شاملًا مضمرًا كالمذكور.

والمنفعـل بالخلـق والإبـداع عامًـا عمومًـا شـموليًا هـو (الكـون) كلـه علـى إطلاقـه وشـموله فـي عناصـر تكوينه وإبداعـه، فهو بالنسـبة لفعل الخلق مفعولـه الذي يتحقق به، وبالنسـبة لفعل القراءة مقروءه الـذي لا يتوقف عليه تحققه، ولكن جوّ الأحداث يفرضه.

وهذه إشارة معيّنة تشهد -بمقتضى إطلاق فعل القراءة عن متعلَّق معين- أن المأمور بقراءته المستعان عليه باسم (ربك) فـي اختصاصـك بتربيـة النبـوة الخاتمـة، وفـي تخصيصك بالإضافـة التكريمية مع عموم واقـع التربية لكل كائن - إنما هو كتـاب الخلق والإبـداع وليس ذلك سـوى حقائق الوجود مسطورة في كتاب (الكون) البديع.

تحقيق روايات بدء الوحي

أكمل وأجود رواية في أحاديث بدء الوحي:

روى البخاري في الجامع الصحيح في باب كيف بدأ الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة أو الصادقة -كما في رواية كتابي التفسير والتعبير، من البخاري- في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حُبِّب إليه الخّلاء، وكان يخلو بغار حراء، يتحنث فيه -وهو (أي التحنث): التعبد -الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزوَّد لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: «فأخذني فغطَّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١ - ٥)

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال: «زملوني، زملوني». فزملوه

حتى ذهب عنه الرَّوْع، فقال لخديجة -وفي كتابَيْ التفسير والتعبير فقال: أيْ خديجة ما لي؟ لقد خشيت على نفسي، فأخبرها الخبر- «لقد خشيت على نفسي»، فقالت خديجة: كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم: اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي: ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «أوَ مخرجيَّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

إلى هنا ينتهي حديث يحيى بن بكير، عن الليث، عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين، وفي قول ورقة لرسول الله ﷺ: «يا ابن أخي ماذا ترى؟» ما يفيد أن ورقة سبق إليه من العلم بحال النبي ﷺ ما جعله

يسأل هذا السؤال عن خصوص ما يرى، وخديجة لم تذكر في حديثها لورقة أن محمدًا ﷺ رأى شيئًا، وإنما قالت: «اسمع من ابن أخيك»، وهذا القول من أبعد احتمالاته أن يفهم منه: اسمع من ابن أخيك حديثه عما يرى، حتى يقول له ورقة: «ماذا ترى؟» ولكن حديث أبي نعيم الآتي يدل على أن خديجة رضي الله عنها أخبرت ورقة إجمالًا بما رأى.

قال ابن حجر في الفتح عند شرح قوله: «ماذا ترى؟» فيه حذف يدل عليه سياق الكلام، وقد صرح به في دلائل النبوة لأبي نعيم بسندٍ حسنٍ إلى عبد الله بن شداد في هذه القصة، قال: «فأتت به ورقة ابن عمها فأخبرته بالذي رأى» اهـ.

قلت: وهذا يدل على أن خديجة حدَّثت ورقة عن حال النبي ﷺ وعن الذي رآه، لذلك سأله: «ماذا ترى؟».

فمن المرجَّح أن يكون قد وصل إلى علم ورقة شيء عن حال النبي ﷺ في نبوته التي بدأت بالرؤيا الصادقة، وسماع الصوت والكلمة من الوحي، مع الإرهاصات والأعاجيب التي كان يراها النبي ﷺ قبل وحي الغار في حديث عائشة رضي الله عنها، كتسليم الحجر عليه كما في حديث مسلم.

قصة مرسل أبي ميسرة أسبق من قصة الغار:

وقد ورد في حديث أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ما هو صريح في لقاء النبي ﷺ ورقة، وإخباره أنه إذا خلا وحده سمع نداء: يا محمد، يا محمد، وهذا غير حديث الغار الذي رواه

الشيخان البخاري ومسلم، وحديث أبي ميسرة رواه البيهقي في الدلائل، وقال عنه جلال السيوطي في (الإتقان): هذا مرسل رجاله ثقات، ونصه أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرًا، فقالت: معاذ الله، ما كان الله ليفعل بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصْدُق الحديث. فلما دخل أبو بكر وليس رسول الله ﷺ ثَمَّ - أي وليس رسول الله ﷺ موجودًا بالمنزل، ذكرت خديجة حديثه له، وقالت: اذهب مع محمد إلى ورقة، فلما دخل رسول الله ﷺ أخذ أبو بكر بيده، وقال: انطلق بنا إلى ورقة، فقال: «ومن أخبرك؟» قال: خديجة، فانطلقا إليه، فقصَّا عليه، فقال: «إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء من خلفي، يا محمد، فأنطلق هاربًا في الأرض» فقال له: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول لك، ثم ائتني فأخبرني، فلما خلا ناداه: يا محمد، يا محمد، قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ١، ٢)

حتى بلغ ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧)

قل: لا إله إلا الله، فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: اثبت: فأنا أشهد أنك الذي بشر به ابن مريم، وأنك على مثل

ناموس موسى، وأنك نبي مرسل، وأنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك هذا، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

حديث أبي الأسود من طريق ابن لهيعة عن عائشة:

وقريب من هذه الرواية ما حكاه ابن حجر في الفتح في شرحه لحديث عائشة قال: وقد وقع في رواية أبي الأسود عن عروة عن عائشة قالت: إن النبي ﷺ كان أول شأنه يرى في المنام، وكان أول ما رأى جبريل بأجياد، فصرخ جبريل: «يا محمد» فنظر يمينًا وشمالًا فلم ير شيئًا، فرفع بصره فإذا هو على أفق السماء، فقال: يا محمد، جبريل، جبريل. فهرب فدخل في الناس، فلم ير شيئًا، ثم خرج عنهم، فناداه، فهرب، ثم استعلن له جبريل من قِبَلِ حراء. فذكر قصة إقرائه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ورأى حينئذ جبريل له جناحان من ياقوت يختطفان البصر. وهذا من رواية ابن لهيعة عن أبي الأسود. وابن لهيعة ضعيف.

روايات تؤيد حديث أبي الأسود:

وقد ثبت في صحيح مسلم من وجه آخر عن عائشة مرفوعًا «لم أره -يعني جبريل- على صورته التي خُلق عليها إلا مرتين» وبيَّن أحمد في حديث ابن مسعود أن الأولى كانت عند سؤاله إياه أن يريه صورته التي خُلق عليها، والثانية عند المعراج.

وللترمذي من طريق مسروق عن عائشة: «لم ير محمد

جبريل فـي صورته إلا مرتين : مرة عند سـدرة المنتهى ، ومرة فـي أجياد » ، وهـذا يقوي رواية ابن لهيعـة ، وتكون هذه المرة غيـر المرتين المذكورتين ، وإنما لـم يضمها إليهما لاحتمال أن لا يكون رآه فيها على تمام صورته ، والعلم عند الله .

ووقـع في السـيرة التـي جمعها سـليمان التيمـي ، فرواها محمد بن عبد الأعلى عن ولده معتمر بن سـليمان عن أبيه أن جبريـل أتى النبـي ﷺ في حراء ، وأقـرأه ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ ثم انصـرف ، فبقي متـرددًا ، فأتاه من أمامه فـي صورته فرأى أمرًا عظيمًا . انتهى كلام ابن حجر .

ولم يظهر لنا وجه قولـه : « وتكون هذه المرة غير المرتين المذكورتين » .

فقصـة حديث أبي ميسـرة قصـة أخرى مغايرة لقصـة الغار ، وليس في قصة حديث أبي ميسرة لقاء الملك ، وإنما فيها سماع النـداء ، ممـا كان يحدث من أمور النبوة قبـل مفاجأة الملك في غار حراء ، فلما حدَّث خديجة بما كان يسـمع من النداء باسـمه أرادت خديجة أن تخفف عنه روعة النداء المفاجئ الذي يسمعه في خلوته دون أن يرى من يهتف باسمه ويناديه ، وذكرَتْ له من أصول الفضائل التي جبله الله عليها ما يجعله بعيدًا عن المخاوف التي أحدثتها في نفسه روعة المفاجأة بالنداء ، فلما جاء الصديق أبو بكر رضي الله عنه ، ولم يكن رسـول الله ﷺ ساعتئذ موجودًا في البيت حدثته خديجة بخبر رسـول الله ﷺ وقالت له : اذهب

مع محمد إلى ورقة، لِمَا كان معروفًا عنه من العلم الأول بالكتب الدينية، فذهب أبو بكر مع النبي ﷺ إلى ورقة.

وأخبره النبي ﷺ بما كان يسمع من النداء باسمه، وانطلاقه هاربًا في الأرض، فطلب منه ورقة أن يثبت حتى يسمع ما يقوله له من يناديه، ثم يأتيه ليخبره، وسمع النداء مرة أخرى، وأمره مناديه أن يقول: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، إلخ فاتحة الكتاب، وأن يقول: لا إله إلا الله. فأتى ورقة كما طلب منه وأخبره، فبشره ورقة بالنبوة والرسالة.

ولسنا نقصد بسياقة مرسل أبي ميسرة، أن نضعه في ميزان مع مسند الشيخين، ولكنا سقناه لإشعاره بما يوضح قول ورقة -في حديث الشيخين-: «يا ابن أخي ماذا ترى؟» في دلالته على أن ورقة كان على علم قبل انطلاق خديجة إليه مع رسول الله ﷺ ببعض حال النبي ﷺ في نبوته، وما كان يراه ويسمعه قبل أن تبدأ رسالته بقصة الغار المتفق عليها.

ومرسل أبي ميسرة مغاير كل المغايرة لحديث الغار الذي لقي فيه رسول الله ﷺ ملك الوحي يقظة وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، ففي مرسل أبي ميسرة ذكر النداء فقط دون أن يرى المنادي، وأن مناديه قال له: قل: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، إلخ.

ولعل هذا المرسل هو مستند من زعم أن فاتحة الكتاب أول ما نزل من القرآن، وسيأتي تحقيق ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

مواضع سياق حديث بدء الوحي عند البخاري:

أخرج البخاري حديث بدء الوحي في مواضع من كتابه (الجامع الصحيح) وسنكتفي بالحديث عن ثلاثة مواضع منها؛ لأنها أقرب في مواضعه إلى موضوعها.

(١) الموضع الأول: أول الكتاب، باب (كيف بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ وهو ثالث حديث في هذا الباب، الذي افتتحه البخاري بحديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه «إنما الأعمال بالنيات» وذكر بعده حديث الحارث بن هشام في سؤاله النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ وثلَّث بحديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهو المقصود بالبحث).

وهذا الموضع الأول لحديث عائشة انتهى عند قوله: وفتر الوحي، ثم ساق البخاري بعده مباشرة قول ابن شهاب الزهري، موصولاً بإسناد حديث عائشة: وأخبرني أبوسلمة بن عبد الرحمن عن جابر بن عبد الله الأنصاري، وذكر حديث نزول

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ (المدثر: ١، ٢)

إلى قوله : ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ (المدثر : ٥)

فحمي الوحي وتتابع.

(٢) الموضع الثاني : كتاب التفسير من (الجامع الصحيح)

تفسير سورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ وهذا الموضع الثاني لحديث عائشة انتهى عند قوله : وفتر الوحي، بزيادة (فترة حتى حزن رسول الله ﷺ) ثم ساق البخاري عقبه مباشرة قول محمد بن شهاب الزهري موصولًا بإسنادين، أحدهما إسناد حديث : كيف بدأ الوحي، وثانيهما إسناد لم يذكره البخاري في كتابه في غير هذا الموضع : فأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن، وساق حديث جابر في نزول ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾.

(٣) الموضع الثالث : أول كتاب التعبير من (الجامع الصحيح) باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، وهذا الموضع الثالث لحديث عائشة رضي الله عنها انتهى عند قوله : وفتر الوحي، وقد ساقه البخاري بالإسناد الأول، عن يحيى بن بكير، عن الليث، عن عقيل، عن الزهري، ثم قرن به إسنادًا آخر عن عبد الله بن محمد، عن عبد الرزاق عن معمر، قال الزهري إلخ.

وبعد انتهاء حديث عائشة رضي الله عنها عند قوله : وفتر الوحي، ساق البخاري بلاغ الزهري، وفيه بعد قوله : وفتر الوحي فترة حتى حزن النبي ﷺ -فيما بلغنا- حزنًا، غدا

منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي منه نفسه تبدى له جبريل، فقال: يا محمد إنك رسول الله حقًا، فيسكن لذلك جأشه، وتقر نفسه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروة جبل تبدى له جبريل، فقال له مثل ذلك.

وواضح أن المواضع الثلاثة تتفق في اعتمادها على يحيى بن بكير شيخ البخاري، عن الليث بن سعد الفهمي فقيه مصر وإمامها، عن عقيل.

عن ابن شهاب الزهري، عن عروة بن الزبير، عن خالته السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وتزيد رواية كتاب التفسير من الجامع الصحيح سندًا آخر غير سند يحيى بن بكير، ساق به البخاري الحديث مقرونًا بالسند الأول، سند يحيى بن بكير، فقال بعد أن ذكر السند الأول إلى ابن شهاب: وحدثني سعيد بن مروان، حدثنا محمد بن عبد العزيز بن أبي رِزمة، أخبرنا أبو صالح سليمان بن صالح الليثي الملقب سلمويه، حدثني عبد الله – هو ابن المبارك – عن يونس بن أبي يزيد، قال: أخبرني ابن شهاب أن عروة بن الزبير أخبره أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: ثم ساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، فترة حتى حزن رسول الله ﷺ.

وهذا السند الذي قرنه البخاري في هذا الموضع بالسند الأول، سند يحيى بن بكير هو الذي قلنا عنه: إن البخاري

لـم يذكره في كتابه في غير هذا الموضع. وقصدُنا السـند في جملتـه بمجموع رجاله وصورته، فإن سـعيد بـن أبي مروان، وابـن أبي رزمة، وسـلمويه، ليس لهم فـي البخاري - كما قال ابن حجر - سوى هذا الموضع، وسعيد بن أبي مروان من طبقة البخـاري، وابـن أبي رزمة مـن طبقة أحمد بن حنبـل، فهو من شـيوخ البخاري، وأبو صالح سـلمويه كان من أخصَّاء عبد الله بن المبارك المكثرين عنه.

أما بقية رجال السـند: عبد الله بن المبارك، ويونس بن أبي يزيد، فهما من رجال البخاري الذين أكثر من ذكرهم.

وتزيـد رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح سـندًا آخر سـاق به البخاري الحدث مقرونًا بالسـند الأول - سند يحيى بن بكير - فقال البخاري: وحدثني عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الـرزاق، حدثنا معمر، قال الزهـري: فأخبرني عروة عن عائشـة رضـي الله عنها، أنها قالت: أول ما بدئ به رسـول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة.

ويتضـح مـن النظر في روايـة الحديث فـي مواضعه الثلاثة أن الروايـة في الموضعيـن الأول والثاني ليس بينهما اختلاف جوهري فـي نص الحديث وسـياقه، سـوى أن رواية الموضع الثانـي التي هي رواية التفسـير تزيد بعد قولـه: وفتر الوحي، قولها: فترة حتى حزن رسول الله ﷺ، وتنتهي بذلك.

رواية كتاب التعبير في صحيح البخاري وبلاغ الزهري فيها:

أما رواية الموضع الثالث، وهي رواية كتاب التعبير من الجامع الصحيح فتزيد في النص بلاغ الزهري عن حزن النبي ﷺ الذي غدا منه مرارًا كي يتردى من رءوس شواهق الجبال، كما ذكرناه فيما سبق.

قال العلامة ابن حجر في الفتح: وقوله هنا: فترة حتى حزن النبي ﷺ فيما بلغنا: هذا وما بعده – أي من إرادة التردي من رءوس شواهق الجبال – من زيادة معمر على رواية عقيل ويونس.

ثم قال ابن حجر: وصنيع المؤلف يوهم ـ أي هنا في كتاب التعبير ـ أنه داخل في رواية عقيل ـ أي وهي الرواية التي ساق بها المؤلف الحديث في باب كيف بدأ الوحي، وليس فيها – أي في رواية عقيل – هذه الزيادة ـ أي التي جاءت في بلاغ الزهري–.

قال ابن حجر: وقد جرى على ذلك ـ أي عدم إدخال هذه الزيادة في رواية عقيل، كما يوهمه صنيع المؤلف ـ الحميدي في جمعه(٣)، فساق الحديث إلى قوله: وفتر الوحي، ثم قال: ـ أي الحميدي–: انتهى حديث عقيل المفرد عن ابن شهاب إلى حيث ذكرنا ـ أي إلى قوله وفتر الوحي ـ وزاد عنه البخاري

(٣) للحميدي كتاب اسمه: (الجمع بين الصحيحين). (المجلة)

في حديثه المقترن بمعمر عن الزهري فقال: وفتر الوحي فترة حتى حزن، فساقه إلى آخره.

ثم قال ابن حجر: والذي عندي أن هذه الزيادة خاصة برواية معمر، فقد أخرج طريق عقيل أبو نعيم في مستخرجه من طريق أبي زرعة الرازي عن يحيى بن بكير شيخ البخاري فيه في أول الكتاب بدونها، وأخرجه مقرونًا هنا برواية معمر، وبين أن اللفظ لمعمر، وكذلك صرح الإسماعيلي أن الزيادة في رواية معمر، وأخرجه أحمد ومسلم والإسماعيلي وغيرهم وأبونعيم أيضًا من طريق جمع من أصحاب الليث بدونها.

ثم إن القائل: «فيما بلغنا» هو الزهري، ومعنى الكلام أن في جملة ما وصل إلينا من خبر رسول الله ﷺ في هذه القصة، وهو من بلاغات الزهري، وليس موصولًا.

***

وحديث بدء الوحي خرَّجه أئمة الإسلام من المحدثين أصحاب الجوامع، والسنن، والمسندات، ودلائل النبوة، والمستخرجات، والمصنفات، ومدوني السيرة النبوية، وحفَّاظ أحداثها.

اختلاف روايات هذا الحديث تجمعت زبدتها في روايات البخاري:

وقد اختلفت رواياتهم اختلافًا عريضًا، لا يكاد في بعضه يلتقي منه طرف بطرف، فبعضهم يزيد، وبعضهم ينقص،

وبعضهم يقتصر على الموصول، وبعضهم يدرج في متن الحديث أشياء من اجتهاده وتفسيره، وبعضهم يلحق بالحديث بلاغات تبلغه عن شيوخه ومن في طبقتهم، ومن هم أعلى منهم، وبعضهم يرسل الحديث إرسالًا، وبعضهم يرفعه وبعضهم يخلط رواية برواية أخرى، وفيهم من يقتصد ويجود.

وهكذا تتسع فجوة الاختلاف بين رواية ورواية، وكتاب وكتاب، بل بين موضع وموضع من كتاب واحد.

وقد انتهى بنا البحث - في حدود الاستطاعة - إلى أن زبدة الموضوع في أحاديث بدء الوحي تجمعت في روايات إمام الأئمة وشيخ شيوخ المحدثين الإمام البخاري في جامعه الصحيح، وزبدة الزبدة من هذه الروايات تجمعت في روايات المواضع الثلاثة التي بيناها فيما سبق.

ومن ثم رأينا أن ندير البحث في إطارها، وإذا عرض أمر لم يذكر في موضع منها، وذكره غير البخاري وكان لهذا الأمر أهمية في البحث عرضنا له، وبينا ما تدعو إليه الحاجة منه، حتى يستوفي البحث أغراضه وينتهي إلى أهدافه في دائرة الإمكان والتوفيق.

أجمعت الروايات في حديث بدء الوحي أن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة الصالحة، يراها في النوم فتجيء في اليقظة كاملة تامة، واضحة كما رآها في

النوم، لا يغيب عليه منها شيء كأنما نقشت في قلبه وعقله، وقد شبهت السيدة عائشة رضي الله عنها - وهي من أقوم أبناء العرب والمسلمين بالبيان العربي - ظهور رؤيا رسول الله ﷺ إذا استيقظ بها في كمال وضوحها بظهور ضوء الصبح ينفلق عنه غبش الظلام، وهو تصوير بياني لا تنفلق دنيا العرب في ذرى فصاحتهم عن أبين منه.

وهذه الرؤيا الصادقة هي أول مراتب النبوة، وكأنما كانت هي الباعث المباشر على حبه ﷺ للخلوة واعتزال ضوضاء المجتمع، والأنس بالوحدة؛ لاستجماع الفكر والسبح في ملكوت الله وجلال بدائع صنعه؛ ولهذا جاءت بحرف الترتيب الرتبي المتعاقب في ريث ومهل، فقيل: «ثم حُبب إليه الخلاء»، أي إنه بعد اصطفائه بالنبوة وبدء معالمها بالرؤيا الصادقة حبب الله تعالى إلى نفسه الطاهرة المطهرة الخلوة، ليتفرغ قلبه وعقله وروحه إلى ما سيُلقَى إليه من أعلام النبوة.

خلوة الغار كانت إعدادًا لميلاد رسالته:

وقد اتخذ رسول الله ﷺ من غار حراء مختلى له ومتعبدًا؛ لينقطع عن مشاغل الحياة ومخالطة الخلق؛ استجماعًا لقواه الفكرية، ومشاعره الروحية، وإحساساته النفسية، ومداركه العقلية، تفرغًا لمناجاة مبدع الكون وخالق الوجود، وتمكينًا لأنوار النبوة من قلبه بالتأمل في مظاهر ملكوت الله.

وقد تحقق له ﷺ بهذه الخلوة من أنوار شهود جلال

الله، وجمال قدسه ما كشف عن روحه العلية أغطية الكثافة البشرية، فكان ﷺ يرى الضوء، ويسمع الصوت، ويكلَّم، ويبشَّر، حتى بلغت به الأنوار القدسية آفاق الكمال النبوي، ووقف بها على الدرج الأعلى من مراتب النبوة، وأتم الله تعالى عليه وله نعمة الاستعداد الأسمى لتلقي رسالة الخلود، وجاءه الملك جبريل أمين الوحي مفاجئًا دون تمهيد لهذا اللقاء الذي لا يماثله لقاء قط بين متلاقيين من المخلوقات.

لقاء جبريل برسول الله لقاء بين طبيعتين مختلفتين في الطبيعة والتكوين:

فهو لقاء بين طبيعتين مختلفتين في التكوين أشد الاختلاف، بين طبيعة مزدوجة الإبداع والخلق، فهي بشرية روحانية، هي طبيعة محمد نبي الله ﷺ وطبيعة موحدة الإبداع في أعلى درجات الروحانية والاختصاص العلوي هي طبيعة أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وليس بين إنسان من البشر بكل ما فيه من كمال البشرية وطبيعتها، وبين ملك بكل ما في طبيعته من روحانية لها اختصاصها القدسي في الملأ الأعلى تناسب ما يقع به اللقاء لتلقي كلمات الله المنزلة من غيب عزه وجلاله، إلا إذا تغلب الجانب الروحاني من الطبيعة المزدوجة على الجانب البشري منها تحقيقًا للتناسب والمشاكلة.

فتحبيب الخلوة إلى النبي ﷺ بعد بدء النبوة بوحي الرؤيا

الصادقة أشبه بحضانة لميلاد الرسالة في مهد الإعداد لطور الانتقال إلى تحمل أعبائها، والقيام بحق تبليغها عامة شاملة للإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها، بما يختلف عليها من أجيال متتابعة، لا ينقطع توالدها البشري متواردة على مر الزمن.

ومن هنا يتجلى وجه المفاجأة في مجيء الحق، ولقاء الملك، وطلب القراءة ممن لم يكن قط قارئًا، واستفراغ بشريته بالغطّ الملائكي المتكرر مع كل طلب للقراءة التي لم تكن بمفهومها المعهود ممكنة الحصول.

مفاجأة المَلَك والتماس حكمة الغط المتعدد:

وكأن هذا الغط بصورته البليغة البالغة هو في حقيقته إذابة لروابط العناصر الطبيعية البشرية عند محمد ﷺ دون إفنائها إفناء يفقدها وجودها، وإنما هو تفتيت لترابط عناصرها، حتى يخف وزنها إلى جانب الطبيعة الروحانية، لتشبعها بأنوار الجلال الإلهي، حتى تنفرد بالحركة الوجودية في تلقي الوحي اليقَظي، وأخذ كلمات الله من حاملها الأمين.

وبقاء الطبيعة البشرية بحقيقتها الأصيلة وراء مشهد تلقي الوحي اليقَظي ضروري لتبليغ الرسالة، استجابة للتناسب بين الرسول والملك؛ لأن كل جنس يأنس بجنسه، والجنس إلى الجنس أميل، وإلى ذلك يشير القرآن الحكيم في قول الله تعالى:

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾

(الأنعام: ٩)

وفي قوله تعالى:

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾

(الإسراء: ٩٥)

وإنما أقدر الله عز شأنه أنبياءه على رؤية الملك لتلقي الوحي عنه، بخلقه فيهم قدرة خاصة، مكنهم بها من ذلك معجزة لهم لإبلاغهم رسالات الله، ليبلغوها إلى أممهم، وتلك القدرة هي ما قصدناه بتغليب جانب الطبيعة الروحانية على جانب الطبيعة البشرية، وإذابة روابط عناصرها، وتفتيت وشائجها الغرزية؛ لتنفرد الطبيعة الروحانية بقوة الوجود الخاص الذي يتحقق به تلقي الوحي عن الملك المرسل به من عند الله العزيز الحكيم.

وحديث بدء الوحي بدأ في جو المفاجأة بلا مهل، فطلب الملك من النبي ﷺ أن يقرأ، دون أن يذكر له مقروءًا يقرؤه؛ لأنه لم يزد على قوله: (اقرأ) هكذا أمر من فعل القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء، أي مقروء، فأجابه النبي ﷺ كما تقضي به البداهة في جو المفاجأة التي لم يسبقها في هذا اللقاء تمهيد مؤنس - ينفي معرفته للقراءة؛ لأنه أمي لا يقرأ، فضمه الملك إليه ضمة شديدة بالغة الشدة، عصره بها عصرًا بلغ منه منتهى

جهده وطاقة احتماله البشري، حتى ظن النبي ﷺ أن نفسه تُقبَض، ثم أرسله الملك وقال له مرة ثانية: (اقرأ) هكذا: فعلُ أمرٍ من القراءة، مطلق عن التقيد بمقروء - أي مقروء - فأجابه النبي ﷺ هذه المرة مستفهمًا - كما وقع صريحًا في مرسل عبيد بن عمير: (ماذا أقرأ؟) فأخذه الملك، وضمه إليه ضمة ضاغطة، بلغت منه منتهى ما تحتمله بشريته، ثم أرسله، وقال له: (اقرأ)، هكذا - أيضًا - فعل أمر من القراءة مطلق عن أي قيد بمفعول معين مما يقرأ في معهود الحياة، فأجابه النبي ﷺ، كما جاء صريحًا في حديث أبي بكر بن حزم، عند أبي بشر الدولابي - مستفهمًا: (كيف أقرأ)؟ وأنا لا أعرف القراءة، فكان هذا استفهامًا عن الحالة التي يصير بها النبي ﷺ قارئًا، وهو الأمي الذي لم يعرف القراءة قط، فأخذه الملك، وضمه إليه ضمة بالغة الشدة استفرغت منه جهده وطاقته، ثم أرسله وقال له:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١ - ٥)

وحدة صيغة الإجابة في حديث عائشة عند البخاري واختلافها في الروايات الأخرى:

وحديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري في مواضعه

الثلاثة من الجامع الصحيح جاءت فيه إجابة النبي ﷺ بصيغة واحدة في المرات الثلاث التي طلب فيها الملك منه أن يقرأ، فكان يقول له في كل مرة: (اقرأ)، فيجيب النبي ﷺ: (ما أنا بقارئ)، وظاهر عبارة الإجابة يقتضي أن هذا نفي لمعرفة القراءة في المرات الثلاث.

وقد سلكنا في فهم الحديث مسلك المغايرة بين الإجابة في مراتبها الثلاث، أخذًا من نصوص حديثية كانت الإجابة فيها متغيرة في صيغتها، وكان ذلك موافقًا لما ذهب إليه كثير من باحثي العلماء الذين حاولوا فهم وحدة صيغة الإجابة في حديث البخاري في مواضعه الثلاثة، على أساس تغايرها في معانيها، بما يجعلها متوافقة مع النصوص الصريحة للإجابة المتغايرة في أحاديث أخرى عند غير البخاري، كما أشرنا إليه في حديثي عبيد بن عمير وأبي بكر بن حزم عند الدولابي.

فلفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الأولى: (ما أنا بقارئ) نافية، ومعنى الجواب حينئذ الإخبار بعدم معرفته القراءة بيانًا لطبيعة أميته التي ولد بها، ونشأ عليها، أي: ما أنا بعارف للقراءة ولا باشرتها قط لأني أميٌّ، لم أكن قارئًا قط، ولا تعلمت قراءة حرف قط، كما جاء صريحًا في بعض الروايات (ما أُحسِنُ أن أقرأ).

ولفظ (ما) في قول النبي ﷺ في المرة الثانية: (ما أنا بقارئ) استفهامية، يراد بها استبانة ما يقرؤه، ومعنى العبارة

حينئـذ : أخبرني أي شـيء أقـرأ ؟ كما يوضحه مجـيء العبارة بصيغة الاستفهام الصريح استخبارًا عما يريد منه أن يقرأه في مرسـل ابن عمير ، فقد جاء فيه (مـاذا أقرأ ؟) ، ويجب توحيد معنـى الروايـات وتفسـير بعضها ببعـض ، فيـرد المبهم إلى المفسر اتقاءً للتخالف والتضارب .

ولفـظ (مـا) في إجابة النبـي ﷺ في المـرة الثالثة بقوله : (مـا أنا بقارئ) اسـتفهامية بمعنى (كيف ؟) ، فهي اسـتخبار عـن الحالة التي يكون بها النبي ﷺ قارئًا ؛ لأن تحقيق القراءة منــه ﷺ بعيد جـدًا عن حالته التي ولد عليها ونشـأ بها ، فهو أمـيٌّ لم يباشـر القـراءة قط فـي حياتـه ، ولا عرفهـا ، فكيف يحققها استجابة لطلب طالبها ، وقد جاءت العبارة بالاستفهام الصريـح بـ(كيف) في حديث أبي بكر بـن حزم الذي خرجه أبو بشر الدولابي ، فقد جاء فيه : أن جبريل استعلن له ، وبشره باصطفاء الله له رسـولًا إلى العالمين ، حتى اطمأن ، ثم قال له : (اقـرأ) فقـال : (كيف اقرأ) ؛ ولهذا جـاء رد الملك عليه بعد هـذه المرة مبينًا له الحال التي يكون بها قارئًا ، مع بقاء أميته ، فقال له :

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ (العلق : ١ - ٤)

وهذا رد مناسـب أكمل المناسبة للاستفهام عن الحال التي

يصير بها النبي ﷺ قارئًا بعد بيان أنه لا يعرف القراءة، ولم يباشرها قط في حياته.

ومعنى الرد بهذه الآيات، وليس فيها ما يقرؤه النبي ﷺ استجابة لطلب القراءة المطلق: كن قارئًا إعجازًا وحقق القراءة وأنت على أُميتك، مستعينًا باسم ربك الذي ربَّاك، وأعدك لرسالتك الخالدة، وليست قراءتك المطلوبة منك أن تقرأ كما يقرأ غيرك تعلُّمًا، وإنما أن تقرأ كما يعلمك الله بعلمه الذي رباك به في أحضان كرمه، هو جل جلاله كما علَّم الإنسان بقلم البيان تعلمًا، سيعلمك بقلم الفضل والإحسان، لتكون معلم الدنيا برسالتك الخاتمة لرسالات السماء.

وقد اتفقت كلمة أئمة الإسلام، وأعلام علماء المسلمين في كافة الأعصر والأجيال، وذوي المعرفة من الحكماء في سائر أوطان الإسلام، أن الملك الذي أخبر حديث بدء الوحي في جميع رواياته أنه جاء إلى رسول الله محمد ﷺ في غار حراء يقظة مفاجأة، فقال له (قرأ) هو الروح الأمين، جبريل أمين الوحي إلى سائر المرسلين.

وكان هذا أول لقاء يَقَظِيّ بوحي قرآني بين سيدنا محمد رسول الله ﷺ والروح الأمين جبريل عليه السلام، وهو لقاء مُحجب بستور الغيب، لا يعلم أحد دون رسول الله ﷺ على أية حال كان، وفي أية صورة لقي عليها الأمينُ الأمينَ عليهما أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

لقـاء جبريل للنبي ﷺ في وحـي اليقظة كان أكثر ما كان في صورة إنسانية:

ولعـل أقرب الأحوال والصور إلـى القبول - إذا كان لابد من الحدس والتظنن، ولا سـيما في حـال المفاجأة، وفي أول لقاء بينهمـا مع اختلاف الطِباع الخِلقية - أن يكون هذا اللقاء وقع في صورة إنسانية تَشَكَّل فيها جبريل تأنيسًا للنبي ﷺ، ورأفة به من شـدة وقع المفاجأة، وما ينشأ عنها من الفزع، لرؤية ما لم يكن منتظر الوقوع.

وقـد ذكـرت الأحاديـث الصحيحة ما يشـهد لذلـك بعد استقرار أمر الوحي، وتتابعه على مدى زمن الرسالة، فقد ثبت أن جبريل عليه السـلام كان في بعض الأحيان يجيء إلى النبي ﷺ في صورة إنسـانية تُعرَف للنبي ﷺ، ولمن يكون شـاهدًا مـن أصحابه، وقد جاء مرات في صورة دحية بن خليفة الكلبي من أصحاب رسـول الله ﷺ، وكان دحية وسـيمًا وجيهًا، وقد رأت السـيدة عائشـة رضي الله عنها جبريل في هـذه الصورة، فسألها النبي ﷺ عنه، فقالت: هو دحية، فقال لها النبي ﷺ: «إنه جبريل».

كما كان يجيء في صورة إنسانية لا تُعرَف لأحد من أصحاب رسـول الله ﷺ، كما في حديث سـؤاله عن الإيمان والإسـلام والإحسـان، وعلم السـاعة، وقـول النبي ﷺ: «هـذا جبريل جـاء يعلم الناس دينهم» كما أخرجـه البخاري من حديث أبي

هريرة، وأخرج مسلم من طريق كَهْمَس في حديث عمر: بينا نحن ذات يوم عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذيه... إلى أن قال في آخر الحديث: ثم مضى فلم يره أحد، فقال النبي ﷺ: «هذا جبريل أتى ليعلمكم دينكم».

ولا شك أن مجيئه مفاجأة في أول مراتب الوحي اليقظي بآيات من القرآن، هي أول ما أنزل على النبي ﷺ من الكتاب الحكيم، أحرى أن يكون على صورة إنسانية مألوفة، وليس بلازم أن تكون هذه الصورة معروفة للنبي ﷺ.

ولذلك قال العلماء: إن (أل) في لفظ (الملك) من قوله: «فجاءه الملك» لتعريف الماهية، لا للعهد، وأصل الكلام فجاء جاءٍ، وكان هذا الجائي ملكًا، فأخبر عنه النبي ﷺ بحقيقة جنسه، لا بحقيقة ذاته وشخصه؛ لأنه لم يتقدم له معرفة به.

وفي التعبير عن أول شيء توجه به الملك إلى النبي ﷺ بقوله: فقال له: اقرأ، بالفاء دليل على سرعة المفاجأة بطلب القراءة، وأنها أعقبت مجيئه بغير فترة، وبهذا تكون المفاجأة تحققت مرتين متواليتين: الأولى في دخول الملك على النبي ﷺ مختلاه ومتعبده، دون تمهيد يشعر النبي ﷺ بأن أحدًا

سيدخل عليه في الغار، والثانية في أمره بالقراءة عقب دخوله عليه مباشرة، وفي كليهما نوع من المغامضة الباغتة المؤثرة على الطبيعة البشرية بما يهز كيانها هزًا يقحم عليها الرعب والفزع، ومن هنا كان فزع النبي ﷺ فزعًا بشريًا رجفت منه بوادره، وظهرت على بشريته آثاره، حتى هدأت نفسه، فتلقى رسالة ربه متثبتًا، مغمورًا بأنوار شهود العزة الإلهية في يقين لا يداخله أدنى شك في اصطفائه رسولًا بعد اجتبائه نبيًا من الصالحين.

عدم ذكر متعلق لفعل (اقرأ) يدل على أن القصد إلى تحقيق القراءة في ذاتها:

وفي إطلاق الأمر بالقراءة، وذكر فعله مجردًا عن تعلقه بمفعول معين، مع تكرره ثلاث مرات بصورة الإطلاق عن التقييد بمقروءٍ، إشارةٌ إلى أن المقصود من فعل الأمر بالقراءة تحصيل مطلق فعل القراءة، ومعناه: حقق القراءة، وكن قارئًا دون القصد إلى مقروء معين.

بيد أن جمهور المفسرين والمحدثين ذهبوا إلى أن فعل الأمر الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ فقال له: (اقرأ) مقيد بقيد ملحوظ، قالوا: لأن الأمر بالقراءة يقتضي مقروءًا، وقدروا هذا القيد فقالوا: اقرأ ما يوحى إليك، أو ما نزل عليك، أو ما أُمِرتَ بقراءته.

ولم يكن آنئذٍ قد أُوحي إليه شيء يقرأ، فإن كان مقصودهم

ما يوحى إليه مستقبَلًا فلا حاجة لتقديره والأمر به؛ لأن وحيه إليه ونزوله عليه مقتض لقراءته وتبليغه.

كذلك لم يكن ساعتئذ قد نزل عليه شيء يقرؤه، ولا كان قد أمر بشيء أزيد من لفظ (اقرأ) مجردًا عن قيده بمقروء معين، فأين مكان القيد الملحوظ؟ وأنى يمكن تعيينه. واختلافهم في تعيينه رجم بالغيب، لا يستدعيه النص.

ولذلك قال بعض العلماء: هو أمر لمجرد التنبيه والتيقظ، وهذا معنى انقطاعه عن التعلق بقيد زائد على مجرد الفعل.

حديث عبيد بن عمير لا يدل على قيد ملحوظ يتعلق به فعل القراءة:

ولا وجه مطلقًا للتعلق بحديث عبيد بن عمير في أن القيد المتعلق به الفعل (اقرأ) مقدر ملحوظ اعتمادًا على تقدم واقعة حديث عبيد –زمنًا– على قصة الغار عند البخاري، بتقدير أن ما جاء في حديث عبيد مما أوحي إلى رسول الله ﷺ، يكون هو قيدًا لفعل الأمر (اقرأ) الذي فاجأ به الملك النبي ﷺ في لقاء الغار، ومعناه في تقدير المتعلقين به: اقرأ ما سبق أن أوحي إليك في رؤياك المنامية، قبل لقاء أمين وحينا بك في غار حراء.

لا وجه لهذا التعلق؛ لأن الذي سبق في حديث عبيد بن عمير بوحي الرؤية المنامية هو عين ما جاء في حديث الغار بوحي اليقظة، فقد جاء في حديث عبيد أن جبريل عليه السلام جاء

إلى رســول الله ﷺ وهو نائم، بنمَط مــن ديباج فيه كتاب[٤]، فقال: اقرأ وكرر عليه هذا الطلب والغت ثلاث مرات، ثم بعد المرة الثالثة قال له:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(القلم: ١ – ٥)

ولا يوجـد في هـذه الروايـة مقـروء معين يتعلـق به طلب القــراءة، حتــى يمكن أن يكـون قيدًا لفعل الأمــر بالقراءة في حديــث الغــار بالإحالة عليه؛ لأن هذه الآيات هي نفســها التي جاءت فــي حديث الغار عند البخاري، والأمر في حديث عبيد بالقراءة مكرر ثلاث مرات بإطلاقه عن التعلق بقيد معين.

فــلا وجــه ـ كما قلنــا ـ لتقدير قيــد لفعل القــراءة الذي بدأ به وحي الرســالة إلى رســول الله ﷺ يقظة في غار حراء، وهو حديــث في أعلى درجات الصحة والثبــوت لاتفاق جميع أئمة الحديــث علــى روايته، ومــا جاء في وحــي النبوة منامًا ســبق اليقظــة ـ إذا صــح حديث عبيد، وهو مرســل– ؛ لأن المقصود مــن الأمر بالقراءة مجردًا عن قيد بمقروء ـ كما هو نص المتن في الروايتين المنامية في مرســل عبيــد، واليقظية في حديث الغــار عنــد البخاري وســائر أئمة الحديث ـ حقِّــق القراءة، أي

(٤) النمط نوع من البُسط. والجمع أنماط. (المجلة)

كن قارئًا، كما حققناه فيما سبق فيكون الفعل الطلبي (اقرأ) استعمل غير متعد إلى مفعول معين؛ لعدم تعلق القصد إلى مفعول معين، بل أريد منه توجيه النبي ﷺ إلى عنوان ولُباب رسالته في عمومها الفكري، واعتمادها على العلم والمعرفة بأوسع مفهومهما الذي جُعلت القراءة في أمر النبي ﷺ بها في بدء رسالته علما عليه وله.

ولعل هذا المعني هو مراد من قال: إن الفعل (اقرأ) أمر لمجرد التنبيه والتيقظ.

أغرب ما قيل في بيان قول جبريل للنبي ﷺ: (اقرأ):

ومن الغريب هنا ما قاله العلامة ابن حجر في الفتح عن شيخه البلقيني: قال شيخنا البلقيني رحمه الله تعالى: دلت القصة على أن مراد جبريل بهذا أن يقول النبي ﷺ نص ما قاله، وهو قوله: (اقرأ) أي التلفظ بهذا اللفظ (اقرأ)، ومن حق الباحث أن يتساءل: ما هو وجه دلالة القصة على أن هذا الذي قاله الشيخ الإمام البلقيني هو مراد جبريل؟ وفي أي موضع منها جاءت هذه الدلالة؟ وهل هذا الاتجاه من قبيل ما قيل: إن المقصود من الفعل (اقرأ) مجرد التنبيه والتيقظ؟ أو هو رأي آخر؟ وحينئذ لا بد من التساؤل: ما الفائدة التي تترتب على ترديد النبي ﷺ هذا اللفظ؟ وأن يقول عين ما قاله الملك له (اقرأ) طالبًا تحقيقه، أو تحقيق قيده الملحوظ، وقد كان هذا الأمر وهو صادر من ملك الوحي طلبًا موجهًا

إلى من هو مطلوب منه، وهو موجه إلى النبي ﷺ، وهذا هو المقصود من مجيء الملك إلى النبي ﷺ.

وإذًا فما شأنه ومعناه حين يردده النبي ﷺ ويقول نص ما قاله الملك له (اقرأ) ومن هو الموجه إليه، المخاطب به، المطلوب منه تحقيقه أو تحقيق متعلقه الملحوظ؟ أهو ملك الوحي؟ أم هو النبي ﷺ؟ والأول من أعجب العجب إذ يصير به المأمور آمرًا، والآمر مأمورًا، والثاني لا قيمة له إلا أن يكون تأكيدًا لطلب الملك منه، كمن يخاطب نفسه تهييجًا لها وحثًا على الاستجابة.

وقد أكثر البلقيني - كما نقله عنه تلميذه ابن حجر - من الاحتمالات والفروض في تقدير متعلق الفعل (اقرأ) الذي فاجأ الملك به النبي ﷺ، وهي احتمالات لم يذكر لها الشيخ سندًا من النقل، فبقيت في مهب التخرصات والظنون.

وقد يكون من أبعدها تقدير: (اقرأ القرآن جملة)، وبنى على هذا التقدير الاحتمالي أن يكون القرآن نزل على رسول الله ﷺ جملة واحدة باعتبار، ثم نزل منجَّمًا باعتبار آخر.

ولا شك أن هذا الفرض الاحتمالي مناقض بظاهره لقول الله تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ (الفرقان: ٣٢)

ومحاولة الإجابة عن هذه المناقضة ضربٌ من التعسف في التأويل، لا داعي له، ولا مبرر لارتكابه.

حكمة تكرار طلب القراءة والغط:

ولما نفى النبي ﷺ عن نفسه الشريفة معرفة القراءة، وأنه لا يحسن أن يقرأ؛ لأنه أمي لم يباشر القراءة قط، ولم يعرفها في حياته - ضمه جبريل إليه ضمة شديدة استفرغ بها بشريته، وأخلص بها روحانيته من التشابك المادي بالطبيعة البشرية، إخلاصًا استجمع به مشاعره وإحساساته، ومدارك عقله، ونبضات قلبه، وخلجات وجدانه، وإشراقات روحه، تحقيقًا للتناسب الروحاني بينه في طبيعته المزدوجة من البشرية والروحانية، وبين الطبيعة الملائكية الخالصة بروحانيتها، التي يتلقى عنها وحي رسالته، وإعدادًا لقواه الذاتية لتقبل أثقال ما ينزل عليه من الوحي، وتهيئةً له لتحمل ما سيلقى من مشاق تبليغ رسالته إلى كافة أفراد الإنسانية وجماعاتها، وأممها وشعوبها في أرجاء الأرض، وتوطينًا لنفسه على فدائح الجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، وإخراج البشرية من ظلمات الظلم والجهالة الضالة إلى نور العلم والعدل والهدى والخير.

فما بلغ منه جبريل عليه السلام تصفية طبيعته من كدورات البشرية بهذه الضمة الأولى أرسله وقال له: (اقرأ) هكذا - أيضًا - أمرٌ مطلق عن التقيد بمقروء، فقال له النبي ﷺ - وقد دنا من روحانيته الملائكية بعض الدنو - مستخبرًا: «ماذا

اقـرأ؟» كما جـاء صريحًا في مرسـل عبيد بن عميـر، فأخذه جبريـل إليه وضمه ضمة، لعلها أشـد مما سـبقها، بلغت منه غايـة جهده وطاقة تحمله، ليسـتنفد ما بقـي عنده من علائق البشرية المقيدة بعناصرها المادية انطلاق إشراقات روحانيته عن السبح في عوالم ملكوت الله، لتكميل إعداده، لتلقي وحي اليقظة ومواجهة الملك فيما يظهر له من الصور والهيئات.

ثـم أرسـله، وقال لـه: (اقرأ) ولـم يزده علـى صيغة الأمر المطلق عـن التعلق بمقروء، فاسـتَبَانَهُ النبـيُّ ﷺ عن الحالة التي يكون بها قارئًا، مع أميته التي ولد بها، ونشـأ عليها منذ كان في حياته كلها، فكيف يصير قارئًا؟

أشد حالات الوحي:

فأخـذه إليه جبريل، وضمـه ضمة عصَره بها عصرًا ظن منه بنفسه الموت، لتستشف روحه، وهي في علوها وتغلبها على بشـريته خطرات الوحي، فلا يَنِدُّ عنه منه حرف أو شيء، ولو لم يكن هناك تعبير بالألفاظ والكلمات، كما في بعض مراتب الوحي، وأشـد حالات الوحـي اليقظي التي أخبـر عنها النبي ﷺ فـي حديث الحارث بن هشـام عند البخاري، عن عائشـة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشـام رضي الله عنه سـأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو

أشده علي، فيفصم عني[٥]، وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الحالة لا تستوعب الأذن المادية التعبير عنها، فهي حالة خاصة، متمحضة للروحانية، وإنما يُدرَك المقصود منها إدراكًا كاملًا بإشراق الروح، إشراقًا يذيب العلائق البشرية في طبيعة النبي ﷺ المزودجة، وتبقى الروح في أعلى درجات شفافيتها، لترسم في مرآتها ما يلقى إليه من الملأ الأعلى بمشافهة الروح الأمين جبريل عليه السلام.

يقول العلامة ابن حجر في الفتح: وهي حالة يؤخذ فيها النبي ﷺ عن حال الدنيا من غير موت، فهو مقام برزخي، يحصل له عند تلقي الوحي، ولما كان البرزخ العام ينكشف فيه للميت كثير من الأحوال خص الله نبيه ببرزخ في الحياة، يُلقي إليه فيه وحيه المشتمل على كثير من الأسرار.

وهذا لا يمكن أن يقع في اليقظة لغير النبي ﷺ، وإن كان يقع شيء منه لبعض الصالحين في غيبة منامية، أو غير منامية، استمدادًا من المقام النبوي، كما يشهد له حديث «رؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة» [صحيح البخاري].

شدة وحي اليقظة على النبي ﷺ:

ولذلك كانت هذه الحالة اليَقَظِيَّة أشد حالات الوحي كما يدل على ذلك تشبيهها بصلصلة الجرس، وهي صوت متدارك

(٥) يفصم عني أي: يقلع وينجلي ما يتغشاني منه. (المجلة)

متتابع، لا تتميز وحداته، يسمعه السامع فلا يتبين منه تعبيرًا عن حقيقة ما يلقى به من المعاني والحقائق، ولا يمكن أن يعي ما جاء به سوى النبي ﷺ الذي يكون حين هذا التلقي في حالة روحانية خالصة، لا سلطان لشيء من طبيعته البشرية على شيء منها، وبهذه الروحانية الخالصة في صفائها وإشراقها يستوعب كل ما يلقى إليه من الوحي.

وقد وقع تشبيه هذه الحالة في بعض الأحاديث بدويّ النحل، كما في حديث عمر رضي الله عنه في وصف مشهد منها، فقال: يُسمع عنده كدوي النحل.

قال العلماء: وهذه الصلصلة أو الدوي هو صوت الملك بالوحي، ولا تعارض بينهما، قال ابن حجر: فدوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس، لأن سماع الدوي بالنسبة إلى الحاضرين، كما قال عمر: يُسمع عنده كدوي النحل، والصلصلة بالنسبة للنبي ﷺ، فشبهه عمر بدوي النحل بالنسبة إلى السامعين، وشبهه هو ﷺ بصلصلة الجرس بالنسبة إلى مقامه.

وهي حالة خاصة بالنبي ﷺ تتغلب فيها روحانيته على بشريته - كما قلنا - ليتصف بصفة الملك، ليقع بينهما التناسب والتجانس ويتم التلقي على أكمل وجه وأثبته.

وقد اختص النبي ﷺ بكمال إدراكه لما يلقى إليه، وما يسمعه، وما يراه في هذه الحالة، فهو ﷺ - على ما يلقى

من شدة ـ يكون في أكمل درجات الإدراك والفهم، والوعي والحفظ، وهذا معنى قوله في حديث الحارث بن هشام: «فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال».

وهذه الشدة التي يلقاها النبي ﷺ في هذه الحالة من حالات الوحي كانت أجمع لقلبه، وأوعى لسمعه، وأوعب لمداركه، لغلبة روحانيته فيها على بشريته، فيسمع ويعي بما لا يعلم طريق إدراكه وفهمه، وأدائه إليه إلا الله رب العالمين.

وبالغَطَّة الثالثة ـ التي ضمه بها إليه ملك الوحي فعصَره حتى بلغ الجهد، بعد الاستفهام عن الكيفية التي يكون بها النبي ﷺ قارئًا تحقيقًا للأمر بمطلق القراءة، وهو الأمي الذي لا يحسن القراءة ولا يعرفها ـ كان قد استكمل استعدادَ النبي ﷺ لتلقي أول مراتب الوحي اليقظي مشافهة بمخاطبة الملك ومواجهته في صورته التي اختيرت له للمجيء فيها إلى رسول الله ﷺ.

القراءة المطلوبة من النبي ﷺ قراءة إعجاز، لا قراءة تعلم:

ولذلك جاءته الإجابة عن هذا الاستفهام، فقال له الملك تبليغًا عن الله تعالى:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١ – ٥)

وهـذه الإجابـة صريحة فـي مطابقتها للاسـتفهام عن بيان الكيفيـة التـي يكـون عليها النبـي ﷺ قارئًا مع كونـه أميًا لا يعـرف القراءة؛ لأن القراءة شـأنُ مَنْ تعلم القـراءة في الألواح والصحف.

فكأنه قيل له في جواب استفهامه عن الحالة التي يكون بها قارئًا مع قيـام موانعها في عرف الحياة ومألوفها: أنت لسـت كهيئـة أحد من الناس، تقـرأ بتعلم كما يقـرءون، وإنما أنت رسول الله اختارك على عينه، لتحمل إلى الحياة رسالته الخاتمة الخالدة، وجعل أميتك خصيصة نبوتك، وأرفع مظاهر معجزة رسـالتك، وأعظم عنـوان على صدقك في دعوتـك، وأبلغ آية في تحديك معانديك، فكن قارئًا، لا كما يقرأ الناس من كتب كتبتها أقلام أيديهم، ولكنك قارئ قراءة إعجاز للقارئين وغير القارئين.

هي قـراءة فيـض رباني، خصك بـه ربك الذي منـه الخلق والإبـداع، فهو الخالق المبـدع المقتدر الـذي ينبئك في أول مراتـب وحيه القرآني إليـك بأجلّ مظهر مـن مظاهر إبداعه، فهو الذي خلق الإنسان وأبدعه في أحسن تقويم، خلقه مما لا تتصـور العقول - لو تركت لتصوراتها الذاتية - أن يكون منشـأ خلقه وإبداعه، خلقه من (عَلَق) وهو أبعد ما يكون عن الصورة الإنسانية في تقويمها وخصائص صورتها.

ولكـن كرم ربك في فيض رحمته، وسـابغ جوده، هو الذي

تتفجر منه ينابيع نعمه على جميع خلقه، وهذا تذكير أبدي دائم بنعمة الخلق والإبداع، وهما من أخص صفات الألوهية، جيء به مرتبطًا ـ في أول منازل الوحي القرآني ـ بعنوان الرسالة الخالدة (اقرأ) والقراءة تعني في إطلاقها الكلمة المكتوبة، والكلمة المسموعة، وهما أساس العلم والمعرفة بأوسع ما يكون لهما من معنى، وهذا الارتباط بين التذكير بنعمة الخلق والإبداع، وبين القراءة على إطلاقها، يوحي بأن جماع الحكمة ولبابها في خلق الإنسان إنما هو العلم في أعلى درجات المعرفة، وأعمق منازل الإدراك، وأشمل مناحي الحياة في هذا الوجود.

ونعمة الخلق المطلق الشامل لكل مخلوق في هذا الكون، ونعمة خلق الإنسان بخاصة وهو المسخر له ما في السموات والأرض ـ أعظم وأجلّ نعم الله التي تستوجب دوام الشكر والتعبد لله الأكرم الذي لم يترك هذا الإنسان سدى، ولكنه تولاه بفضله، وأفاض عليه أجلَّ نعمه، بعد نعمة خلقه، فعلَّمه من العلوم والمعارف ما جعله به سيد الحياة يسخرها بعلمه ويستخرج كنوزها بعقله، ويفيد منها بتجاربه، ويستثمرها بخبرته ومعارفه، ووهب له القلم آية من آيات بدائعه ووسيلة من وسائل حفظ خصيصته الفكرية، مسجلة في صحائف آثار الحياة على مر أزمنة خلودها، حتى لا تتبدد جهود أفكاره، وتذهب آثاره في كشف أسرار الكون ضياعًا.

وقد أخرج الله الإنسان إلى هذه الحياة وليدًا ضعيفًا ساذجًا، لا يعلم شيئًا ومنحه منافذ الإدراك والعلم من الحواس، وأجلها السمع والبصر، ووهبه معهما خزانة الفؤاد ليحفظ فيها علومه ومعارفه وتجاربه، فقال عز شأنه ممتنًا عليه بهذه النعمة الجليلة ومذكرًا له بأصل وجوده:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(النحل: ٧٨)

وهنا قد يرد سؤال حام حوله بعض الباحثين من أئمة العلم، وهو: هل عرف النبي ﷺ أنَّ الذي فاجأه في متعبده -غار حراء- وقال له: (اقرأ) ملك مرسل إليه من عند الله؟.

وقد أجاب الذين بحثوا عن هذا السؤال بأجوبة تخمينية، لا تعتمد على أسس علمية نقلية أو عقلية، ولا نرى بنا حاجة إلى ذكرها، وليرجع إليها في مصادرها من يريدها، ونحن نعرض للموضوع من وجهة نظرنا، وعلى طريقتنا في أسلوب بحثنا.

والروايات الحديثية التي استطعنا الاطلاع عليها لم نجد فيها ما يفيد أن النبي ﷺ كان في بدء اللقاء المفاجئ يعرف أن مفاجئه بالدخول عليه في الغار، دون تمهيد، وقال له (اقرأ) ملَك من عند الله تعالى مرسل إليه، ليبلّغه رسالة ربه.

ولكن قرائن الحال، وجو المفاجأة، وما جرى فيه من حوار،

وما وقع من تكرار طلب القراءة بصورة واحدة مع تكرار الغط بحالة بالغة الشدة، ودخول الملك على صورة لم يعرفها النبي ﷺ فيمن يعرف من الناس، مع سوابق الأحداث ـ يفيد أن النبي ﷺ كان يعرف أن محدثه المفاجئ بدخوله وتصرفه الذي وقع منه إليه ليس شخصًا ممن يعرفهم في قومه، أو فيمن رآهم من الناس، وأن مفاجأته بطلب القراءة منه دون تمهيد يؤنسه به، يؤكد تلك الصورة الغريبة التي طافت بخاطر رسول الله ﷺ حين المفاجأة، وبدء الحديث بطلب القراءة.

والروايات الحديثية الثابتة تفيد أن النبي ﷺ سبق إليه الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة التي كان يراها في منامه فتجيء في يقظته محققة، جلية واضحة، ثابتة كفلق الصبح، وانبلاج ضوء النهار من بين غبش الظلام، كما جاء صريحًا في عدد من الأحاديث الصحيحة والروايات الثابتة التي قد ترتفع إلى مرتبة التواتر في معانيها.

قالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حديثها: أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة ـ وفي رواية: الرؤيا الصالحة ـ في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ـ إلى أن قالت: فجاءه الملك، فقال له: اقرأ.

ولا شك أن مجيء الملك في غار حراء كان أول مراتب الوحي اليَقَظِي بالرسالة، والتعبير عن مجيئه، بإدخال حرف (الفاء) في قول عائشة: «فجاءه الملك» يفيد أن مجيء الملك

إلى النبي ﷺ في الغار كان بعد وقوع الوحي المنامي في الرؤيا الصادقة الصالحة الذي افتُتِحَتْ به النبوة تأنيسًا للنبي ﷺ، وإعدادًا له لتلقي ما سيجيئه من وحي اليقظة بمجيء الملك إليه، فالتعقيب المستفاد من (الفاء) يفيد أن مجيء الملك إلى النبي ﷺ يقظة في غار حراء - وهو الذي بدأت به الرسالة - كان بعد الإيحاء إليه بالرؤيا الصادقة الذي بدأت به النبوة، فهو ﷺ كان قد نُبِّئ قبل إيحاء اليقظة الذي لقيه به الملك في الغار، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ)، فالنبوة سابقة بوحيها ومراتبه على الرسالة بوحيها الذي جمع بمراتبه بين حقيقة النبوة والرسالة.

لم ينزل شيء من القرآن في وحي منامي:

ووحي الرسالة بدأ بنزول القرآن، ولم نعلم قط أن وحيًا مناميًا انفرد بتنزُّل شيء من القرآن الكريم، قال السيوطي في الإتقان: إن الملك يأتيه في النوم، وهل نزل عليه فيه قرآن أم لا، والأشبه أنه نزل كله يقظة، وحديث كتاب النمط الديباجي الذي رآه النبي ﷺ في منامه، وكان فيه كتاب - أي كتابة - لم يصرح فيه ولا في غيره - فيما نعلم - بأن ما كان من الكتابة في هذا النمط هو الآيات الخمس من أوائل سورة (اقرأ) أو غيرها من آي القرآن، ولم يذكر فيه أن جبريل حين جاءه منامًا بالنمط المكتوب قال له: اقرأ ما في النمط من الكتاب، وإنما قال له (اقرأ) دون أن يذكر له مقروءًا، ولهذا كان رد النبي ﷺ على

هذا الطلب : (ما أقرأ) وهو محتمل للنفي والاستفهام، وتكرر طلب القراءة مع الغت[٦]، وتكرر رد النبي ﷺ بالصيغة عينها (ما أقرأ) وهي على احتمالها لنفي معرفة القراءة والاستفهام عن أي شيء يقرأ. وفي المرة الثالثة لطلب القراءة أفصح النبي ﷺ صراحة في رده عن استخباره منه عن أي شيء يقرأ، فقال: (ماذا أقرأ؟)، فلو كانت الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اقرأ) ما صح هذا الاستفهام.

ولو سلم أن الكتابة التي في النمط هي الآيات الأولى من سورة (اقرأ) وكانت هي المقصودة بقول جبريل عليه السلام (اقرأ) لم ينتقض ما قلناه من أنه لم يقع لنا العلم بانفراد الوحي المنامي بشيء من القرآن الكريم قط؛ لأن هذه الآيات كانت هي أول الوحي اليقظي، وهي التي أقرأها الملك للنبي ﷺ في مفاجأة الغار، فتكون قد نزلت بالوحي التمهيدي، وحي النبوة بالرؤيا الصادقة، ونزلت بالوحي اليقظي في بدء الرسالة، فلم ينفرد بها الوحي المنامي.

على أن حديث النمط مرسل مفرد، فلا تقوم به حجة على ادعاء نزول شيء من القرآن في النوم أمام الأحاديث الكثيرة التي تفيد كلها أن نزول جميع آيات القرآن وسوره كان بوحي اليقظة والمشافهة.

---

(٦) الغَتُّ والغَطُّ سواءٌ وهو الضم الشديد يجد المرء منه المشقة كما يجد من يغمس في الماء قهرًا. (المجلة)

كان وحي النبوة تمهيدًا لوحي الرسالة:

ووحي النبــوة بالرؤيا الصادقة كان تمهيــدًا وتوطئة لوحي اليقظــة، يحمــل في طوايــاه نوعًا مــن معرفة النبــي ﷺ لمن فاجــأه في الغار، ولكنها معرفة لا تحدد صورة اللقاء، ولا تبين المعالم الذاتية لشخصية هذا المفاجئ؛ ولهذا قال العلماء: إن النبــي ﷺ عبَّر عما عرفه فيما بعد أنه ملك، ومعرفته اليقينية بــه كانت بعد انصرافــه من الغار منقلبًا إلى أهلــه، وقد رآه في صورة رجل صافٍّ قدمَيْه في أفق السماء، يقول: يا محمد أنت رسول الله، وأنا جبريل.

وحينئــذ يكون جــواب النبي ﷺ عن طلب القــراءة في مراته المتعــددة وما احتف به من الغط جواب العارف بأن من فاجأه في متعبده غار حراء طالبًا منه هذا الطلب الغريب عن طبيعته ونشأته (اقرأ) هو من صور النبوة المتدرجة في مدارج الوحي ومراتبه: من تمهيد بالمبشــرات، والإرهاصات، وعجائب الخوارق والآيات، كتســليم الأحجار والأشــجار عليه ﷺ، كما ثبت في حديث ابن عبــاس عند أبي بشــر الدولابــي، عن عكرمة أن ابــن عباس قال: بعــث الله محمدًا ﷺ على رأس خمس ســنين مــن بنيان الكعبة، وكان أول شــيء أراه إياه من النبــوة رؤياه في النوم... فلما قضى إليه الملك الذي أُمر به انصرف رســول الله ﷺ منقلبًا إلى أهله، لا يأتي على حجر ولا شجر إلا سلَّم عليه، سلامٌ عليكم يا رسول الله، فرجع إلى بيته وهو موقن أنه قد فاز فوزًا عظيمًا.

وكما ثبت في صحيح مسلم عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

والرؤيا الصادقة أجلّ مراتب التدرج في النبوة، وهي تأنيس للنبي ﷺ وتمهيد للقاء اليقظي الذي هو بدء وحي الرسالة.

حديث عبيد بن عمير أوفى روايات وحي النبوة الممهدة لوحي الرسالة:

وأوفى روايات الرؤيا الصادقة التي مهدت للرسالة بوحيها اليقظي، وأتمها تفصيلًا، وأوضحها في التوطئة المتصلة برؤية الملك وابتداء نزول القرآن مرسل عبيد بن عمير عند ابن إسحاق، وهو من صحاح المراسيل.

قال الإمام قاضي المدينة المنورة عبيد بن عمير الليثي أحد كبار التابعين: كان رسول الله ﷺ يجاور في حراء من كل سنة شهرًا، وكان ذلك ما تتحنث به قريش في الجاهلية - والتحنث التبرر - فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاء من المساكين، فإذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته- الكعبةَ، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله به فيه ما أراد من كرامته، وذلك الشهر رمضان خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته، ورحم العباد بها

جاءه جبريل بأمر الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: «فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: «ما أقرأ» فغتَّني به، حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أقرأ» فغتني به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال: «اقرأ» قلت: «ماذا أقرأ؟» ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع، قال:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

(العلق: ١-٥)

فقرأتها، ثم انتهى، فانصرف عني، وهببت من نومي، فكأنما كتب في قلبي كتابًا.

فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتًا من السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، رفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فوقفت أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفًا، ما أتقدم أمامي، وما أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي، فبلغوا مكة ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني،

وانصرفت راجعًا إلى أهلي، حتى أتيت خديجة فجلست إلى فخذها مفضيًا إليها، وفي رواية مضيفًا إليها، فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك، فبلغوا مكة ورجعوا إليّ، ثم حدثتها بالذي رأيت، فقالت: أبشر يا ابن عمي، واثبت، فوالذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل، وهو ابن عمها وكان قد تنصر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله ﷺ أنه رأى وسمع، فقال ورقة: قدوس، قدوس، والذي نفسي بيده لئن كنتِ صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت. فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بقول ورقة، فلما قضى رسول الله ﷺ جواره وانصرف صنع ما كان يصنع، بدأ بالكعبة، فطاف بها فلقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي: أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذَّبنه، ولتؤذَينَّه، ولتقاتَلَنَّه، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرًا يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبَّل يأفوخه، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله».

نظر وبحث في حديث عبيد بن عمير:

هــذا الحديث الذي جــوَّده القاضي التابعــي الثقة عبيد بن عميــر يصور رؤيــا منامية رآها رســول الله ﷺ، فيها كثير مما جــاء في حديث عائشــة رضــي الله عنها عند البخاري ومســلم وغيرهمــا مــن أئمة المحدثيــن في لقــاء اليقظة بالغــار، وفي هذه الصورة المناميــة رأى النبي ﷺ جبريل أمين الوحي عليه الســلام، ومعه نمط من ديباج فيه كتاب -أي كتابة- وقال له: اقرأ، فنفى النبي ﷺ عن نفســه معرفــة القراءة، فغته جبريل، وكــرر عليه الأمر بالقراءة والغــتِّ، كما وقع في حديث الغار، ولكنه لم يقل له: اقرأ ما في النمط من مكتوب، بل قال له في المرة الرابعة:

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾

إلى قوله تعالى:

﴿عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾

كمــا يصور هــذا الحديث رؤية النبــي ﷺ جبريل يقظة في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق الســماء، وذلك بعد أن انتهت الرؤيــا المنامية، وهبَّ ﷺ من نومــه، ووجد في قلبه ما أُقرئ في نومه كأنما كُتب فيه، وخرج من متعبده منصرفًا إلى أهله، إلى أن توســط الجبل، وســمع صوت جبريــل وهو يخاطبه، يا محمد: أنت رسول الله وأنا جبريل.

ولا شــك أنَّ هــذه الرؤيا المناميــة وما وقع فيهــا من طلب

القراءة والغت وتكرارهما كانت سابقة على اللقاء اليقظي في غار حراء، وقعت تمهيدًا وتوطئة له، وتأنيسًا للنبي ﷺ بلقاء اليقظة الذي بدأت به الرسالة، وإنزال القرآن الكريم.

يقول صاحب (عيون الأثر): وفي حديث عبيد بن عمير في خبر نزول جبريل عليه السلام، قال رسول الله ﷺ: «فجاءني وأنا نائم» فهذه حالة - أي من حالات الوحي - وحديث عائشة وغيرها أنه كان في اليقظة، فهذه حالة ثانية، ولا تعارض لجواز الجمع بينهما بوقوعهما معًا، ويكون الإتيان في النوم توطئة للإتيان في اليقظة، وقد قالت عائشة: أول ما بُدئ به عليه السلام من الوحي الرؤيا الصادقة.

وجليّ من حديث عبيد بن عمير أن النبي ﷺ رأى جبريل في رؤياه المنامية، وجاءه بنمط مكتوب فيه كتابة، واستقرأه وغتَّه، وأقرأه أول سورة (اقرأ)، وهذه الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة بمقتضى حديث عائشة وغيرها من أحاديث بدء الوحي.

ويقتضي توافق الروايات أن تكون هذه الرؤيا المنامية سابقة على اللقاء اليَقَظِي في مفاجأة غار حراء، وقد قلنا - مكررًا - إن الرؤيا المنامية درجة من درجات النبوة، وإن اللقاء اليقظي الذي تم في مفاجأة الغار هو أول مراتب وحي الرسالة.

معنى كلمة رسالة في حديث عبيد:

وما وقع في حديث عبيد من قوله: حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها (برسالته) يحتمل أنه يقصد بدأت الرسالة بلقاء اليقظة الذي تم في مفاجأة الغار، بعد وقوع الرؤيا المنامية، ولا مانع من وقوعهما في ليلة واحدة، بدأت بالرؤيا المنامية، وختمت بمفاجأة الغار ولقاء الملك يقظة وبدء نزول القرآن الكريم، أو في ليلتين متتاليتين، والمقصود تقارب الزمن بين اللقاءين.

وتكون رؤية الملك في صورة رجل صافٍّ قدميه في أفق السماء وقعت بعد مفاجأة الغار حين انصراف النبي ﷺ راجعًا إلى بيته وأهله، كما يشير إلى هذا الاحتمال ما جاء في حديث عبد الله بن أبي بكر بن حزم، فإنه ذكر أن النبي ﷺ رأى في المنام رؤيا فشق ذلك عليه... إلى أن قال: ثم استعلن جبريل - أي ظهر للنبي ﷺ علانية يقظة - وهذه العلانية التي ظهر فيها جبريل هي لقاء المفاجأة في الغار، بدليل ما جاء في هذا الحديث نفسه من قوله: ثم قال له: «اقرأ» قال: «كيف أقرأ» قال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(العلق: ١ - ٥)

وهذا عين ما جاء في لقاء الغار مع الاختصار في مرات طلب القراءة.

ويحتمل أن يكون عبيد قصد بكلمة (رسالته) مرتبة الوحي التي بدأت بها النبوة متدرجة في مراحل كمالياتها إلى أن بلغت مرتبة الرسالة؛ لأن نبوة النبي ﷺ في مراتب درجاتها، وسبقها الرسالة كانت مَعْبرًا لرسالته ووصلة إليها، فأطلق عبيد على أكمل درجات النبوة الممهدة للرسالة عنوان الرسالة وسماها باسمها؛ نظرًا لما وقع في هذه الدرجة من درجات الكمال النبوي، مما أشبه ما وقع فيها ما وقع في أول لقاء يقظي في الغار حيث بدأت الرسالة، ولا سيما طلب القراءة، والغت الذي انتهى بإقرائه الآيات الخمس من أول سورة (اقرأ)، وهي عينها التي أقرأه إياها جبريل في لقاء اليقظة ومفاجأة الغار، بعد أن كرر عليه طلب القراءة والغط، والنبي ﷺ ينفي عن نفسه معرفة القراءة، ويستفهمه ماذا يقرأ، حتى أقرأه الآيات وانصرف عنه.

ورؤية النبي ﷺ لجبريل في حديث عبيد بنوعيها المنامي واليقظي في أوسط الجبل لا تحدد صورة خاصة يمكن الحكم عليها بأنها صورة جبريل في جميع أحوال مجيئه إلى النبي ﷺ يقظة أو منامًا، وإنما هي فِي كليهما حالة من حالات التشكل التي أُعطِي الملكُ القدرةَ على التشكل فيها، وهي حالات لا يمكن حصرها في صور وأشكال معينة.

ولهذا لا يَعْرف أحد غير النبي ﷺ على أية صورة جاء الملك في أول لقاء يقظي في مفاجأة الغار، وصورة مجيئه

السابق على مجيء الغار التي وقعت في حديث عبيد بن عمير من أنه كان في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء لا تعيِّن الصورة في كافة حالات مجيئه يقظة أو منامًا.

النبـي ﷺ كان على يقيـن أن مفاجئه في الغار ملَك ثم عرف يقينًا أنه جبريل عليه السلام:

بَيـد أن الذي يُقطع به أن النبي ﷺ عـرف يقينًا أن مفاجئه بالدخـول عليه في متبعده وطلب القراءة منه هو ملك مرسـل إليـه مـن عنـد الله، إذ لا يقبل في هذه المعرفة أدنى شـك بعد ثبـوت النبوة بدرجاتها المتفاوتة فـي كمالها، وأنه ﷺ عرف يقينًا بعد أن ذهبت عنه روعة المفاجأة، ودهشة ما احتف بهذا اللقاء أن هذا الملك هو أمين الوحي جبريل عليه السلام.

وذلـك ظاهر فـي حديث عبـد الله بن أبـي بكر بن حـزم عند الدولابـي، قـال: إنه كان من بـدء أمر رسـول الله ﷺ أنه رأى في المنام رؤيا، فشـق ذلك عليه، فذكـر ذلك لصاحبته خديجة بنت خويلـد، فقالت له: أبشـر، فإن الله لا يصنع بـك إلا خيرًا، فذكر له أنه رأى أن بطنه أخرج فطُهِّر وغسـل ثم أعيد كما كان، قالت: هذا خير، فأبشـر، ثم استعلن به جبريل، فأجلسه على ما شاء الله أن يجلسه عليه، وبَشره برسالة ربه حتى اطمأن، ثم قال له: اقرأ، قال (كيـف أقرأ) قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (العلق: ١ - ٤)

فقبل رسـول الله ﷺ رسـالة ربه ، واتبع الذي جاء به جبريل مـن عند الله وانصرف إلى أهله ، فلمـا دخل على خديجة قال : «أرأيتـك الـذي كنت أحدثـك ورأيته فـي المنام فإنـه جبريل استعلن» ، فأخبرها بالذي جاءه من عند الله عز وجل وسـمع ، فقالت له : أبشـر ، فوالله لا يفعل الله بك إلا خيرًا ، فاقبل الذي آتاك الله ، وأبشر ، فإنك رسول الله حقًا .

فقوله : ثم استعلن به جبريل أي ظهر له علانية يقظة بعد أن رآه منامًا في صورة التشـكل التي أعطي القدرة عليها والظهور فيهـا منامًا أو يقظة ، وقوله ﷺ لخديجـة حينما دخل عليها : (أرأيتـك الـذي كنـت أحدثك ورأيته فـي المنام فإنـه جبريل استعلن) ـ نـص صريح قاطع بـأن جبريل عليه السلام ظهر علانيـة يقظـة للنبي ﷺ بعـد مجيئه إليه في المنـام ، وأنه في هذا الاسـتعلان أقرأه أوائل سورة (اقرأ) وهذا الاستعلان الذي أخبـر بـه النبي ﷺ ظاهر جدا فـي أنه هو عيـن اللقاء اليقظي المفاجـئ في غار حـراء الذي جاء في حديث عائشـة وغيرها عنـد البخاري وغيره وبـدأ به نزول القـرآن الكريم لأن نزول أوائل سورة (اقرأ) لم يرد ، ولم يثبت في حديث سوى حديث عائشة رضي الله عنها عند كافة المحدثين ، وهو حديث أجمع على صحته أئمة الإسـلام من المحدثين والمفسرين والفقهاء والمتكلميـن ، أما حديث عبيد بن عمير في رؤيا المنام وإقراء النبـي ﷺ هذه الآيات فـي النوم فهو حديث مرسـل ، لا تقوم

بــه حجة على ادعاء نزول شــيء مــن القرآن منامًا كما أشــرنا إليه فيما ســبق، فحديث ابن أبــي بكر بن حزم المؤيد لمعرفة النبــي ﷺ أن مفاجئه في الغار ملك مرســل إليــه من عند الله، وأنــه هــو أمين الوحي جبريل عليه الســلام، ظاهــر -في جزئه الأخير الذي ذكر فيه اســتعلان جبريــل- أنه وارد مورد حديث عائشــة رضي الله عنها في لقاء الغــار؛ لأنه في هذا الجزء أخبر ﷺ عن اســتعلان جبريل بعد رؤيا شق البطن وتطهيره وغسله فــي المنــام، ويؤكد ذلك ما جــاء في رواية ابــن لهيعة عن أبي الأســود، عن عروة عن عائشــة، وفيها: ثم اســتعلن له جبريل من قبل حراء، فهذه الرواية عينت أن استعلان جبريل كان من جهة حراء.

ولم نعلم حديثًا ذكر ظهور جبريل علانية يقظة للنبي ﷺ، وطلب القراءة، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ) سوى حديث عائشة فــي لقاء الغــار المتفق على روايته في جميــع دواوين الحديث والسنة.

أمــا حديث عبيد بن عمير فكان الإقراء فيه منامًا -وهو مع إرساله- لا مدخل له هنا.

فحديث ابن أبي بكر بن حزم هو عين حديث عائشــة رضي الله عنهــا، ســيق مركبًا من وحيٍ منامي، ووحــي يقظي موجِزًا مختصرًا مبينًا صورة من صور ما أُجْمِل في حديث عائشة رضي الله عنها، من أن أول ما بُدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا

الصادقة في النوم، وهي صورة شق البطن، وتطهيره في حديث ابن أبي بكر بن حزم.

فالنبي ﷺ عرف يقينًا أن مفاجئه باللقاء الشخصي يقظة في غار حراء ملك مرسل إليه من عند الله لإبلاغه رسالة ربه، ثم عرف -يقينًا- بعد ذلك أنه أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ فهو محدثه في الغار، ومستقرئه، ومستفرغ بشريته بالغط المتكرر بتكرر طلب القراءة، مع بالغ الشدة والجهد، ليفرغ في روحانيته من الخصائص العلوية ما يتناسب مع أرفع روحانية الملأ الأعلى، إعدادًا له ﷺ لتلقي الوحي يقظة على أكمل صوره، وأعلا درجاته، وأرفع مراتبه، التي سيكون من ضروبها التلقي عن الله تعالى بغير واسطة كما جاء في أحاديث المعراج وفرض الصلاة ليلة الإسراء، كما قال الله تعالى:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾

(النجم: ١٠)

مراتب الوحي:

وللوحي مراتب ودرجات كثيرة فصلها العلماء وأئمة البحث من أعلام الإسلام، وجمعها إجمالًا قول الله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾

(الشورى: ٥١)

وقد ثبت منها لنبينا محمد ﷺ أجلها وأرفعها في مقامات القرب، ونحن نذكر منها ما ثبت ثبوتًا بينًا بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة:

المرتبة الأولى:

الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان -كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديثها- لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

المرتبة الثانية:

ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه وخاطره من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته».

المرتبة الثالثة:

أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلًا، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحيانًا.

المرتبة الرابعة:

أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيلتبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد، كما ثبت في حديث الحارث بن هشام.

المرتبة الخامسة:

أن يـرى النبـي ﷺ الملـك في صورتـه التي خُلـق عليها، فيوحي إليه ما شـاء الله أن يوحيـه، وهذه المرتبة وقعت للنبي ﷺ مرتيـن، مرة فـي الأرض، ومرة في السـماء، كما جاء في سورتي النجم والتكوير.

المرتبة السادسة:

مـا أوحـاه الله إليه كفاحًا منه إليه دون واسـطة ملك، ووقع ذلـك للنبي ﷺ وهو فوق السـماوات ليلـة المعراج من فرض الصلاة وغيرها من الشرائع والفروض.

طلب القراءة وتحققها مع الأمية الثابتة إعجاز بليغ:

وفـي طلب القراءة في وحي اليقظة وبدء الرسـالة من النبي ﷺ وهـو الأمـي الـذي لا يعـرف القـراءة ولا يحسـنها، كما هـي في مألـوف الناس وطبيعتهـم؛ لأنها لا تكـون إلا بالتعلُّم والتثقيـف، وهـو ﷺ بمـا يقطـع به تاريـخ حياته لم يباشـر تعلمًـا قط، ولم يثافن معلِّمًا، ولا ثاقـف مثقفًا ـ تنبيه على أن قراءتـه التي يطلب منـه تحقيقها لا تجري على سـنن مألوف النـاس في حياتهم البشـرية، وإنما تحققت له القراءة بمحض الفيض الإلهي مسـتعينًا باسـم ربه الذي جعـل من قراءته وهو أمـي معجزة رسـالته، وهي رسـالة لا تقف عند حـدود طبيعته الشـخصية في أميته، بل هي رسالة أساسـها العلم والمعرفة، وأن علمـه ومعارفـه اللَّذيـن تعتمـد عليهما رسـالته الخاتمة

لرســالات الســماء، الخالدة بخلود الحياة، ليسا مما يتعارض مــع وصفــه الطبيعي فــي أميته التــي جعلهــا الله خصيصته في رســالته، وجعلها مناط صدقه فــي دعوته، ودعامة معجزته في رسالته.

ولهذا فاجأه الملك يطلب القراءة بصيغة فعل الأمر، وكرر عليــه هذا الطلــب دون تغيير بزيــادة متعلق للفعــل حتى بلغ إفهامه أنه يكون قارئًا بقراءة لا تتنافى مع بقاء أكرم خصائصه في رسالته بوصف الأمية.

بدء رسالة محمد ﷺ

كان ميلادًا روحيًا جديدًا لحياته وحياة أمته

ومن هنا يسهل فهم ما وقع للنبي ﷺ - في ظل قداسة النبوة، وجلال الرسالة المستلزمين للعصمة - من ظواهر استعظام أمر رسالته في صورتها التي بدأ بها وحي اليقظة ومواجهة لقاء الملك، مع ما بينهما من اختلاف بعيد المدى في طبيعة خلقهما.

ذلك أنه ﷺ علم يقينًا من هذا اللقاء، وما حف به، أنه قد ولد في يوم ذلك اللقاء ميلادًا روحيًا جديدًا، هو ميلاد رسالة خاتمة خالدة، تقتضيه طبيعتها تغيير معالم الحياة كلها، وتجديد خَلقها، والسير بها في مهايع لم يسبق لها سلوكها، وأنه ﷺ بهذا الميلاد الجديد حمل من الأعباء ما تنوء بحمله السماوات والأرض والجبال، وأنه ﷺ سيعيش مدة رسالته بطبيعتين متلازمتين مختلفتين أشد الاختلاف في عناصر تكوينهما وآثارهما في حياته وحياة البشرية كلها في مشارق الأرض ومغاربها، أو أنه ﷺ سيعيش بطبيعة مزدوجة في خصائص جانبيها الروحي والبشري.

كمال بشرية محمد ﷺ
كان مهدًا لميلاد رسالته

الطبيعة الأولى: طبيعة بشريته التي ولد بها ميلادًا بشريًا، ونشأ عليها نشأة إنسانية، كما خلقه الله بخصائصها المادية، وعناصرها العقلية، ومداركها الفكرية، وحيويتها الروحية، على أكمل ما تكون طبيعة إنسان من الكمالات والفضائل الإنسانية، والمعالم البيئية، والمظاهر الاجتماعية في المجتمع الذي نهد فيه، وعاش بين أجوائه وتقلباته وأخلاقياته.

هذه الطبيعة هي التي عاش ويعيش بها ﷺ إنسانًا مع الناس في حياتهم، يعاشرهم، ويتبادل معهم مطالب الحياة التي تقتضيها طبيعة البشر في دائرة أفضل الكمالات التي يمكن أن يكون عليها إنسان في حياته مع الناس والأشياء.

وهذه الكمالات الإنسانية هي التي نشأ عليها، وعرفت له في قومه وبلده، فتزوج وولد له بنون وبنات، وقام على رعاية أولاده وزوجه، وأصهر إلى أكرم قومه، وتعاون في أمور العيش وتكاليف الحياة وأعبائها مع أهله وجيرانه، وسائر قومه، يواسي قرابته، ويحسن إلى خدمه، ويكرم ضيفه، ويبر إخوانه وأصدقاءه، ويأكل، ويشرب، وينام ويصحو، ويغضب ويرضى ويحب ويكره، ويمرض ويستشفي، ويبيع ويشتري،

ويستسلف ويستدين، ويعطي ويأخذ، ويسافر ويحضر، ويهدي ويقبل الإِهداء، ويثيب على ما يقدم إليه من خير أفضل منه، ودود كريم، حيي حليم، رءوف رحيم، يصدق الحديث، ويؤدي الأمانة، وفيٌّ بالعهد، سليم الصدر، يعين الضعفاء، ويضمد جراح المساكين، أغنى الناس بالقناعة، وأجودهم بالعطاء، يألف ويُؤلف، عزوف عن الدنيا، لا يزاحم عليها ولا يخاصم في شيء منها، رعى الغنم واتجر، أمين محبوب، يلجأ إليه قومه ويرضونه لحل معضلاتهم، ويشاركهم في أعمال الشرف والمروءة.

وهو ﷺ في ذلك كله من مآثر طبيعته البشرية لا بد أن يكون دائبًا على تبليغ رسالة ربه، يدعو الناس ــ كل الناس ــ إلى الله تعالى، وإلى معرفته وتوحيده، والتعبد له وحده، يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، يحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، يرغبهم في الخير، ويحببهم فيه، ويعدهم عليه عظيم ثواب الله، ويرهبهم من الشر وينفرهم من مقارفته، ويوعدهم على مواقعته بأليم عذاب الله وسخطه، يحبب الخلق في الخالق، ويعظم في أنفسهم نعمه عليهم، لا يُؤْيِسُهُم من رحمته، ولا يقنطهم من فضله وإحسانه، يستغفر للمذنبين ويفتح لهم أبواب الرجاء ويدعوهم إلى الإِنابة والتوبة، ويحضهم على العمل لدنياهم كحضه لهم على أداء واجبات دينهم، يبغضهم في الكسل ويحببهم في الكسب

الحــلال، ويقــول لهم: (اليــد العليا خير من اليد الســفلى)، يكرم العلماء، ويعلم الجهــلاء، ويعلي مكانة العلم والمعرفة ويقول: «إنما بعثت معلِّمًا».

يجاهــد أعــداء الله، ويقيم للنــاس موازين العدل، وينشــر بينهــم رحمــة الله، ويربــط بين الأفــراد والجماعــات بأواصر الإخــاء والمحبة، والتعاطف والمودة، ويدعو إلى المســاواة، وإلــى التعــاون والإيثــار، يعفو ويصفــح، ويأمــر بالصبر على الأذى، يرد السيئة بالحســنة، ويقابل الجهل بالحلم، إن كان فــي الناس كان كأحدهم يشــاركهم أحاديثهــم، ويضحك مما يضحكــون منه، ويألــم لما يألمون لــه، إلا أن تنتهك حرمات الله، وإن كان وحــده كان الله تعالى أنيســه، يتفكر في جلاله، ويتمثل عظمته، ويقرأ في كتاب الكون آثار اقتداره ورحمته.

وهكــذا كان يقــوم في ظل طبيعته البشــرية بكل ما تتطلبه حياة النــاس بما كان لهم من أعراف عادلــة، وعادات فاضلة، وأخلاق عالية، وخلائق نبيلة، في حدود كمالاته الإنسانية التي نشــأ عليها جبلة وتخلقًا، مع عظيم قيامه بحق تبليغ رسالته، فلم يقع منه في حياته البشرية ما يفسد الفطرة الأصيلة النقية الطاهــرة، لم يقع ما يغمط حق العقل الإنســاني فــي إدراكاته ومعارفــه، ولم يقع منه قط ما يخــدش وجه الفضيلة، فهو ﷺ أكمل البشــر خلقًا وخلقًــا، وأعدلهم عملًا، أرســله الله رحمة للعالمين بالهدى ودين الحق.

وهذه الطبيعة البشرية تعني شخصية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، التي عرفه الناس عليها، وعرفته الحياة كلها بها، وعرفه التاريخ بخصائصها إنسانًا من الناس، اصطفاه الله نبيا ورسولًا، بلغ الناس رسالة ربه، فهدى الله به من شاء من عباده ويهدي لرسالته من يشاء من خلقه فهي أحد جانبي طبيعته المزدوجة من عناصر البشرية وخصائصها المادية والروحية العامة . ولا يكون الإنسان إنسانًا إلا بتكامل الخصائص الإنسانية بشقيها المادي والروحي العام.

وبهذا التصوير يتبين وجه اعتبارها جانبًا من جانبي الطبيعة المزدوجة لشخصية (محمد رسول الله)، وبالفواصل الخصائصية بينها وبين الجانب الروحاني يتبين وجه اعتبارها طبيعة مستقلة بالنسبة إلى خصائص الجانب الروحاني الذي اعتبرناه بالنظر إلى خصائصه طبيعة مستقلة، ولكن الوشائج التي تربط بين الجانبين أو الطبيعتين أقوى من الفواصل الخصائصية بينهما، فالجانبان أو الطبيعتان هما طبيعة واحدة تؤلف من عناصرها شخصية (محمد رسول الله).

ميلاد رسالة محمد ﷺ كان ميلادًا للحياة

الطبيعـة الثانية: طبيعة روحانيـة خالصة في روحانيتها هي التي ولد بها (محمد رسـول الله) ﷺ ميـلادًا روحانيًا جديدًا يـوم أن تم له أول لقاء بملـك الوحي يقظة في غار حراء، ذلك الميـلاد هو ميـلاد رسـالته بخصائصها في أكمـل الكمالات الروحانيـة، وأعظـم إشـراقاتها العقليـة، وأنوارهـا العليـة، وتناسباتها الملائكية.

هذه الطبيعة الروحانية هي الميلاد الجديد، ميلاد (محمد رسول الله) ﷺ وإن شئت قلت: هي ميلاد رسالة محمد ﷺ، ذلك الميـلاد الذي كان في الحقيقة ميـلادًا للحياة، تجددت بـه معالمهـا، وتغيَّرت بـه طرائقها، واسـتقامت على سـننه هدايتها، وقامت على دعائم منائره موازينها، واستنارت بنوره مسالكها، متدرجة في مراحل نموها الحضاري والفكري.

هذه الطبيعة الروحانية هـي التي تلقَّى ويتلقى بها (محمد رسـول الله) ﷺ عن الله تعالـى ما يلقيه إليـه الملك في وحي اليقظـة والمواجهة، وهو ﷺ على أكمل مراتب إحساسـاته، وأتم درجات شـعوره ويقظة مشـاعره، وأعلى إدراكات عقله، وأضوأ إشراقات روحه، وأقرب منازل قربه.

وبهـذه الطبيعة الروحانية كان يلقى محمد رسـول الله ﷺ أمين الوحي جبريل عليه السـلام في صور وتشكلات ملائكية مختلفـة المظهـر، تجـل عن مـدارك العقـول، فلا يسـتطاع

تحديدها بصورة معينة أو بشكل خاص يلتزمها في جميع لقاءاته بمحمد ﷺ .

وبهذه الطبيعة كان ﷺ يتقبل ما يُلقى إليه من ضروب الوحيِ في رسالته ليبلغه إلى الناس هداية ورحمة، ونورًا وبرًا، وعدلًا ومحبة، وإخاء ومساواة، وإيثارًا ومواساة.

وهذه الطبيعة الروحانية باستعلائها على الطبيعة البشرية تذيب خصائص البشرية المادية عند رسول الله ﷺ ، اتقاء لاستحواذها عليه وتُغَلِّبُ الخصائص الروحانية لتكون كاملة التجلي الباطني، مشرقة الشفافية، ليتحقق بها التناسب بين طبيعة الملَك التي يلقاه عليها الروح الأمين في أكثر حالات وحي اليقظة، وبين طبيعة البشر التي تبقي للنبي ﷺ مظاهرها كاملة في تلقي وحي المشافهة إبقاء على مرتبة التناسب البشري في التبليغ.

المزاوجة بين الروحانية والبشرية خصيصة النبوة الخاتمة:

هذه المزاوجة بين الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية خصيصة النبوة الخاتمة والرسالة الخالدة، رسالة محمد ﷺ ، فلا تحجب قوة الإشراق الروحاني عنده منافذ الحس البشري من شخصيته، بل يبقى لكل طبيعة خصائصها عند التبليغ، فالنبي ﷺ في هذه المزاوجة بين الطبيعتين بشري المظهر، ملائكي المخبر، فهو مع الناس ببشريته الكاملة، وهو مع

الملأ الأعلى بروحانيته الكاملة.

فهذه الطبيعة الروحانية مع أنها تذيب خصائص البشرية عند رسول الله ﷺ وتُغلِّب عليها الخصائص الروحانية كاملة التجلي الباطني، والإدراك العقلي، والإشراق الروحي ـ لا تفقد بها بشرية رسول الله ﷺ عناصر الإدراك الحسي، والإحساس الشعوري، ولا تتأثر منافذ التصور بها، بل إن هذه المنافذ تكتسب قوة تكون بها في أكمل حالات التنبه، وأعلى مراتب الوعي، كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ في حديث الحارث بن هشام من رواية أم المؤمنين عائشة عند البخاري وغيره أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليَّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال».

تمثل الملك رجلا عَكْسُ لصورة التناسب عند النبي ﷺ وهو يتلقى الوحي:

وهذه الحالة التي تمثلها الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ أشبه في صورتها العكسية بحالة الملك حين يتمثل رجلًا فيكلم النبي ﷺ كما يكلم الرجل الرجل، فيعي عنه ما يقول، وهي الحالة المقابلة لحالة مجيء الملك في صورته الملائكية، وقد عبر عن هذه الحالة أيضًا رسول الله ﷺ في حديث الحارث عن عائشة رضي الله عنها فقال: "وأحيانًا

يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول" .

والبحث عن تمثل ملك الوحي في صورة رجل ـ كيف يكون ؟ وعلى أية حالة يقع ، مما سبح فيه خيال بعض أهل العلم ـ خارج عن نطاق التكليف العلمي ، وهو بالتخرصات والتظنن أشبه .

وقد أشرنا ـ فيما سبق ـ إلى أن حالة تمثل الملك رجلًا أشبه عكسيًا بحالة النبي ﷺ في تغلب روحانيته على بشريته ، حين يلقى أمين الوحي جبريل عليه السلام مواجهة في اليقظة ، ويشافهه بالوحي ، ويكون التصرف والحكم حينئذ للطبيعة الروحانية التي يتلقى بها الوحي في هذه المرتبة من مراتبه ، وتبقى الطبيعة البشرية كامنة كاملة للقيام بحق التناسب في تبليغ الوحي إلى الأمة .

وهذه الحالة التي عبَّرنا عنها بالمزاوجة بين الطبيعتين ، الطبيعة البشرية والطبيعة الروحانية عند رسول الله ﷺ ، أكمل في الوجود الواقعي ، والعمل في التبليغ والأداء ، لاحتفاظها بجانبي التلقي عن الملك والتبليغ إلى الأمة .

وتمثُّل جبريل عليه السلام في صورة رجل اختيارٌ لشكل بشري تتغلب فيه مظاهر الطبيعة البشرية على مظاهر الطبيعة الملائكية التي هي باقية كامنة كاملة ، كما بقيت طبيعة البشرية كامنة كاملة عند رسول الله ﷺ حين تلقى وحي اليقظة والمواجهة ، وهذا التمثل يقع تأنيسًا للنبي ﷺ .

ولعل هذه الحالة هي الحالة التي جاء بها الملك في غار حراء إلى رسول الله ﷺ في أول لقاء له به، فاستقرأه واستفرغ بالغطّ المتكرر بشريته، وأقرأه أوائل سورة (اقرأ).

وتغلب مظاهر البشرية في حالة تمثل الملك رجلًا لا يقتضي تحول روحانية الملك إلى طبيعة بشرية بعناصرها المادية، ونوافذ إدراكاتها الحسية، ولا يقتضي فناء الحقيقة الملائكية، بل إن طبيعة الملك الروحانية باقية حال التمثل في صورة بشرية على أكمل حالاتها التي لها في الملأ الأعلى، لكنها تكون حين التمثل مقيدة بالصورة التي اختار الملك التشكل فيها عند مجيئه إلى رسول الله ﷺ ليبلغه عن الله تعالى ما أمر بتبليغه ولا سيما إذا كان هذا التبليغ يتعلق بتعليم الناس أمر دينهم، وينتهي تقيدها بالصورة التي تمثلت في إهابها بانتهاء التبليغ والتعليم، كما ثبت في حديث تمثل جبريل عليه السلام في صورة رجل أعرابي، وسأل النبي ﷺ عن معالم الدين وأصوله، وكان الصحابة يهابون رسول الله ﷺ أن يسألوه، فلما استكمل ما جاء به لتعليمه الصحابة انصرف، فلم يُعرف أين ذهب، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هذا جبريل جاء يعلمكم دينكم».

بعض النصوص التي تصور شدة الوحي اليقظي

وقد كانت حالة تغلب الطبيعة الروحانية عند النبي ﷺ على الطبيعة البشرية أشد ما كان يلقاه رسول الله ﷺ في

حالات الوحي وهي التي عبر عنها بصلصلة الجرس، ودوي النحل، وهي لا تكون إلا في وحي اليقظة.

وقد عبرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن هذه الشدة فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد(٧) عرقا.

وعبر عنها ما رواه هشام بن عروة قال: إن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها(٨)، فما تستطيع أن تحرك حتى يسري عنه.

وعبر عنها ما جاء في حديث أبي أروى الدوسي عند ابن سعد قال: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها ينقصم، فربما بركت، وربما قامت موتدة يديها حتى يسري عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان(٩).

وعبر عنها ما جاء في حديث زيد بن ثابت قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت ترض فخذي.

وعبر عنها ما جاء في حديث عبد الله بن عمرو عند الإمام أحمد قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله هل تحس

---

(٧) من الفصد والمراد تقاطر حبات العرق من بدنه عليه السلام. (المجلة)

(٨) وضعت جِرانها أي بركت على الأرض. والجران مقدم عنق الناقة والبعير. (المجلة)

(٩) الجمان: اللؤلؤ، وحبٌّ يصاغ من الفضة كاللؤلؤ. (المجلة)

بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ "أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تقبض".

وعبَّر عنها ما جاء في حديث عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب وتربد وجهه.

وأجملَ حديثُ ابن عباس عند البخاري التعبيرَ عنها فقال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ويشير إلى هذه الشدة قول الله تعالى:

﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾

(المزمل: ٥)

قال العلماء: عنى به الوحي بنزول القرآن عليه، وثقله فيما كان يجده من الشدة في تلقيه.

تعلُّق الملاحدة وأعداء الإسلام بمظاهر الشدة في وحي اليقظة:

وقد تعلق بهذه الشدة التي كان يلقاها رسول الله ﷺ عند نزول الوحي عليه في يقظته ومواجهة الملك على حالة ملائكية، وما كان يظهر من آثار تلك الشدة على بشريته ﷺ من نحو اربداد وجهه الكريم، وما يعتريه من الكرب والبُرَحاء(١٠) وتفصد جبينه بالعرق في اليوم الشديد البرد - قوم من أحلاس(١١)

(١٠) البُرحاء: شدة الأذى. (المجلة)

(١١) الأحلاس: جمع مفرده حلس؛ والحلس ما ولي ظهر الدابة وما يُبسط فى البيت من حصير ونحوه. ويستعار للملازمة. يقال هو من أحلاس البلد أي لا يفارقها. (المجلة)

الشرك والنفاق، وعبيد الإلحاد والكفر والاستشراق، قديمًا وحديثًا، فنبذوا النبي ﷺ بألقاب السوء، وقالوا مجنون يُصْرَع، وتقوَّلوا عليه ليشككوا في نبوته ورسالته، مما أوحت به إليهم شياطينهم، من الكذب وقول الزور افتراء على الله ورسوله.

وقد رد الله تعالى عليهم فريتهم وأكاذيبهم، بعد أن حكاها عنهم في مواضع متعددة من القرآن الكريم، يقول الله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٤)

ففي هذه الآية الكريمة تصوير لتجني هؤلاء الفجرة من طغاة الكفرة، وجهالتهم الضالة، وأنهم قوم بهت، لا يصدر منهم القول عن نظر وتدبر ليعرفوا الحق من الباطل، وليست لهم بصائر يتفكرون بها في مبادئ الأمور وعواقبها، وقد أبرزت الآية الكريمة ذلك في أسلوب إنكاري مفعم بالتقريع والتوبيخ لما أهدروه من مدارك عقولهم، ولدمغهم بالكذب والبهتان، والتسجيل عليهم أنهم قالوا قولًا باطلًا، لو تفكروا فيه، وتدبروا مداخله ومخارجه لعلموا بطلانه بداهة.

ذلك أن مَن به مس من الجنون يصرعه ويتخبطه لا يمكن أن يصدر عنه كلام في أعلا درجات البراعة البيانية باعتراف غطارفة الفصاحة فيهم[١٢]، وهو مع ذلك يحمل في عباراته

(١٢) الغطارفة جمع واحده غطريف وهو السيد. (المجلة)

أجل المعاني الإنسانية، وأسمى الحقائق الكونية، وأدق النظم الاجتماعية، وأصدق القضايا العقيدية، وأزكى الآداب الخلقية، وأفضل الشرائع التعبدية، ثم يبقى دهره كله على أرفع سنن الاستقامة، وزكانة(١٣) الرأي، وجودة التفكير، لا يخالف قوله فعلُه، ولا تختلف آدابه وأخلاقه، يعرف له أعداؤه أمانته وصدق حديثه، وبره ووفاءه، وشجاعته ومكارم أخلاقه.

القرآن يتحدى الملاحدة:

وهاهوذا القرآن الحكيم، الكتاب الذي جاء به محمد ﷺ منزلًا من عند الله قائم بين أظهركم وفي متناول أيديكم وعقولكم، فاقرءوه وتعمقوا فهمه، وحاولوا بكل ما أوتيتم من قوة، وادعوا معكم شهداءكم من شياطين الإنس والجن لتستخرجوا معنى متهافتًا يُشعِرُ بأن مَنْ أتى به بعيدٌ عن استقامة المدارك العقلية، وقد تحداهم القرآن بآياته فقال:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

(محمد: ٢٤)

والتدبر طلب المعنى بالقلب والعقل، وذلك هو ما يسميه منطق الفلسفة بالنظر والتعقل، ونتيجته هي العلم واليقين.

---

(١٣) الزكانة: الفراسة. والمراد بزكانة الرأي: السرعة في إصابة الحقيقة. (المجلة)

تاريخ محمد ﷺ في حياته ورسالته آية صدق على كماله:

وهاهوذا تاريخ محمد ﷺ وأحاديثه وسننه وآدابه وأخلاقه وشريعته تحت أنظاركم فانظروا وتفكروا في جوانب ذلك كله، واستخرجوا منه -ولن تستطيعوا- ما يقيم عوج دعاواكم، وأود أباطيلكم، ولكنكم علمتم أن محمدًا ﷺ أرسله الله تعالى ليقوض بنيان الكفر والنفاق، ويهدم صرح الإلحاد، وينذر الذين لووا رءوسهم عن قبول الحق بعذاب الله وبأسه، والذين ينغضون اليوم رءوسهم جحودًا وعصبية عمياء ببطش الله وعقابه.

﴿فَلَمَّا جَآءَتۡهُمۡ ءَايَٰتُنَا مُبۡصِرَةٗ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ١٣ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (النمل: ١٣، ١٤)

ويقول تبارك وتعالى:

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثۡنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ لَّكُم بَيۡنَ يَدَيۡ عَذَابٖ شَدِيدٖ﴾ (سبأ: ٤٦)

وهذه الآية الكريمة تجري في مهيع أختها آية الأعراف، وتبدأ ببيان مهمة محمد ﷺ في رسالته التي أمر بتحقيقها في الحياة، فهو مرسل ليعظ الناس أن يقوموا لله الواحد الأحد

علـى قـدم العبودية، بإفراده بالتعبد له وحده، لا يشـركون به شيئًا، جماعات وأفرادًا، وهذه قضية فطرية من بدائه العقول، لا تحتـاج إلا إلـى موقف تذكير وكلمة واعظـة، تحرك القلب إلـى اليقظـة والعقل إلـى التنبه، فإذا اسـتيقَظ القلـب، وتنبه العقـل، وعادت الفطرة إلى استقامتها في توحيد الله فانظروا حينئذ في شأن محمد ورسالته، نظر تدبر وتفكر لتصلوا بهذا التدبر إلى العلمِ الذي لا يدخله شـك، ويتجلى لكم أن محمدًا أصح الناس عقلًا، وأصدقم حديثًا، وأهداهم هدى، وأرشـدهم رشـدًا، أليس بين أيديكم ما جاء به من شـرائع وآداب، ونظم وأخـلاق؟ فهـل تجدون فيها مـا يدل من قريـب أو بعيد على أن محمـدًا نزل عن ذروة الكمال العقلي، والآداب الاجتماعية التـي عرفتها البشـرية -منذ كانت- للكملة مـن المصطفين لرسالات الله تعالى؟

ولكنه ﷺ بعثه الله نذيرًا بين يدي عذاب شديد لمن أعرض عن النظر في آيات الله ولم يؤمن بربه وهو يرى ما بثه في الكون من دلائل وحدانيته وقهر قدرته وبالغ حكمته.

يقول الإمام الرازي في تفسـيره: كان النبي ﷺ عند نزول الوحي تغشاه حالة عجيبة، فيتغير وجهه ويصفر لونه، وتعرض له حالة شبيهة بالغشي، فالجهال كانوا يقولون إنه جنون، فالله تعالى بيَّن في قوله تعالى:

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ (الأعراف: ١٨٤)

أنه ليس به نوع من أنواع الجنون، وذلك لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الله، ويقيم الدلائل القاطعة والبينات الباهرة بألفاظ فصيحة، بلغت في الفصاحة إلى حيث عجز الأولون والآخرون عن معارضتها، وكان حسن الخلق طيب العشرة، مرضي الطريقة، نقي السيرة، مواظبًا على أعمال حسنة صار بسببها قدوة لعقلاء العالمين، ومن المعلوم بالضرورة أن مثل هذا الإنسان لا يمكن وصفه بالجنون، وإذا ثبت هذا ظهر أن اجتهاده على الدعوة إلى الدين إنما كان لأنه نذير مبين، أرسله رب العالمين لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين.

ومن لطائف القرآن الكريم هنا أنه ذكر محمدًا ﷺ في هذا المقام بعنوان (الصحبة) ليذكرهم بأنهم أعرف الناس به، وأنه لم يفارقهم، ولم يفارقوه، بل صحبهم وصحبوه، ولازمهم ولازموه، فهل عرفوا عنه طول حياته بينهم شيئًا يخدش إدراكاته العقلية وإحساساته ومشاعره الإنسانية؟ لقد صدق الله تعالى إذ يقول:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ (الأنعام: ٣٣)

شعور النبي ﷺ بضخامة عبء رسالته:

وقد شعر رسول الله ﷺ في حياته الجديدة التي بدأت بميلاد رسالته في مهد الوحي -غار حراء- شعورًا ملك كل جوانب نفسه، وملأ عليه كل ذرة من ذرات حسه وإدراكاته

فــي كل حركة من حــركات وجوده، منذ هــذا اللقاء المفاجئ في غار حراء الذي بدأ به ميلاد رســالته - بضخامة العبء الذي ألقي على عاتقه في تحمُّل أثقال الوحي اليقظي وشدائده التي تخرجه في أكثر أوقات رسالته إلى روحانية، تخلعه عن بشريته في شدة بالغة الجهد، تبلغ آثارها به أن يظن في كل مرة يُوحَى إليه وحي يقظة ومواجهة أن نفســه تقبض، وهذا وصف لشدة ما يلقاه النبي ﷺ من الغط واستفراغ بشريته.

وهــو ﷺ قــد أوتي من قــوة الاحتمال والصبــر على فوادح الشدائد ما لم يؤته أحد من البشر، فأي فوادح تلك التي تجعله ﷺ يظن عند نزولها به مع نزول الوحي أن الموت ينزل به؟

إنها بلا شــك شــدائد ليس لبشــر قوة على احتمالها، فهي ليســت من جنس شــدائد الحياة وفوادحها التــي تقع للناس، فيصبرون عليها أو لا يصبرون.

امتنـان اللـه تعالى على حبيبه محمـد ﷺ بتخفيف عبء الرسالة عليه:

ولكنهــا شــدائد أثقــال النبوة وأعبــاء الرســالة ولعلها هي النعمــة العظمى بعد نعمة النبوة والرســالة التي امتن الله عليه بوضــع أثقالها عــن عبده ورســوله وحبيبه، بعد أن اســتقر به المســير النبوي ووطن نفسه على أن يعيش لرسالته، ويحتمل في ســبيلها كل مــا تأتي به الحياة من شــدائد وفــوادح، فقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾

(الشرح: ١ - ٣)

وهـذه السـورة مـن المكيات السـوابق، نزلت بعد سـورة (والضحـى) وفي بعـض الروايات أنهما نزلتـا معًا بكمالهما بعـد فترة قصيـرة من الوحي، ليلـة أو ليلتيـن أو ثلاثًا، وعند بعض الشـيعة أنهما سـورة واحدة، ونسـب هـذا إلى طاووس وعمر بن عبدالعزيز، ورده الرازي بحجة لا تسلم له، والمعنى أن الله جـل ذكره يقـول لنبيه محمد ﷺ ممتنًـا عليه: فلتهدأ نفسُك وتقر عينك، فقد شرحنا لك صدرك، ووسعناه، بأنوار اليقين، فانفسَـح لتحمل أثقـال الوحي، وأقدرناك على تحمل وزره وأعبائـه ممـا لحق بك من الهيبة وفـزع المفاجأة في أول لقـاء بأمين وحينا جبريل، وقويناك علـى احتمال أعباء النبوة وأثقـال الرسـالة، بعـد ما نـاءت قـوى بشـريتك باحتمالها، فحططنا عنـك أثقال فوادحهـا التي أثقلـت أحمالها ظهرك، وجعلنـاك حمـال آياتها بمـا آتيناك من قـوى روحانية دعمت قوى بشـريتك، وأقدرناك على القيام بتبليغ رسالتنا إلى خلقنا ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فجعلناك خير رسول لخير أمة.

قـال الفخر الـرازي في تفسـير ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾: المراد تخفيف أعباء النبوة التي تثقّل من القيام بأمرها وحفظ

موجباتهـا، والمحافظـة على حقوقها، فسـهل الله تعالى ذلك عليه، وحط عنه ثقلها بأن يسرها عليه حتى تيسرت له.

وقال الشـوكاني في تفسـيرها: والمراد الامتنان عليه ﷺ بفتـح صدره وتوسـيعه حتى قـام بما قام به مـن الدعوة، وقدر علـى ما قدر عليه من حمـل أعباء النبوة التـي تثقل الظهر من القيام بأمرها، فسهل الله ذلك عليه، حتى تيسرت له.

إيمان النبي ﷺ برسالته أساس وجوب متابعته:

هذا الشعور الذي غمر كيان رسول الله ﷺ بعظمة رسالته، وأثقال أعبائها، وحقوق أدائها، وواجبات تبليغها عامة شاملة للزمـان والمكان والأجيال ـ هـو الإيمان الخاص الذي امتدحه الله به، وجعله ذروة العوامل والأسـباب في وجوب متابعته في عموم رسـالته، فقال تعالى داعيًا سائر المكلفين ممن تبلغهم دعوته:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

فقـد ذكره الله تعالى في مقام الإشـادة بذكره، والثناء عليه ومدحه، والدعوة إلى متابعته بأخص أوصافه في رسالته ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ ثم بين الله تعالى أن هذا النبي هو القدوة العامة العليا للإنسـانية كلها، فيما دُعوا إليه من الإيمان، وأنه السـابق إلى

ذروته، فهو ﴿ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ وكلمات الله هي شرائعة التي أنزلها متدرجة في مدارج الكمال في رسالاته إلى أنبيائه حتى انتهت إلى أكمل كمالها في الرسالة الخالدة، رسالة هذا ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ الذي يؤمن بكلمات الله كلها، وهي التي دُعي كافة الناس إلى الإيمان بها، واتباع حاملها إليهم، ليسيروا في إيمانهم على نهجها؛ ليكونوا من المهتدين إلى الاستمساك بعروة الإيمان الوثقى التي لا تنفصم طاقات فتلها، وفي ذلك يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ:

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾

(الأعراف: ١٥٨)

وهذا الإيمان الخاص به ﷺ غير الإيمان العام الذي يتصف به كل نبي ورسول من أنبياء الله ورسله؛ لأن الإيمان الخاص يمتاز عن الإيمان العام بخصائص تخصه ﷺ.

تشريف الأمة بوراثة التبليغ ومشاركتها في المدح والثناء:

وهذا الشعور الغامر هو المظهر الأعلى للإيمان الخاص الذي كان به محمد ﷺ القدوة القصوى لأمته؛ ليسلكها معه في رياض نهجه في رسالته؛ لتكون داعية بدعوته ووارثة عنه تبليغَ رسالته، كما قال تعالى لمجموع الأمة:

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾

(آل عمران: ١٠٤)

ومعنى الآية الكريمة: كونـوا جميعًا[١٤] يا أيها الذين آمنوا بهذا النبي الأمي - الذي يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكـر ويحل الطيبات ويحرم الخبائـث، ويضع عن أمته أثقال ما كان في الشـرائع السابقة، ويرفع عنها أغلال أحكامها وشـدائد تشـريعاتها - دعاة إلى الخير وسـماحة العمل، آمرين بالمعـروف، ناهين عن المنكر، بقدر اسـتطاعة كل مسـتطيع منكم، وراثة عن رسـولكم النبـي الأمي الذي جعله الله قدوتكم العظمى، ثم ضمَّن وعده بفلاحهم، بُشرى قيامهم بما أمروا به، وذلك بإبراز الجزاء في صورة الإخبار المحقق الواقع.

ولهذا أشـرك الله الأمة مع نبيها، وأدخلهـا في رياض الثناء عليهـا فيمـا أنزله مدحًا لـه ولها بهذا الإيمـان الخاص، فقال تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

وإيمـان الرسـول أصـل بذاتـه، متلقَّـى عن الله جـل ذكره

(١٤) هذا المعنى قائم على أساس أن (من) في قوله: (منكم) بيانية لا تبعيضية؛ لأن شريعـة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا تترك أحدًا من الأمة دون تكليف ينهض به قدر طاقته واستعداده.

بالوحي، وإيمان الأمة فرع عنه متلقَّى عن الرسول ﷺ بالتبليغ، فهو مرتبة تعليم منه وتعلُّم منها، تتدرج بالأمة في مدارج العلم والمعرفة، وتتفاوت على حسب منازل الأفراد من الاستعداد والتلقي، وفي حدود هذا العلم يكون وزن الإيمان، ويكون التكليف.

ومن هنا كان إيمان أبي بكر الصديق رضي الله عنه وازنًا برجاحة إيمان جميع الأمة؛ لرسوخ علمه بالله تعالى رسوخًا كان به أثبت المؤمنين قلبًا، وأشجعهم نفسًا يوم زُلزلت أقدام الأكابر، الفاروق عمر بن الخطاب فمن دونه، ومن هنا كان تكليف الصديق بالخلافة عن رسول الله ﷺ -والبيعةُ في الإسلام تكليف- فقام بالأمر قيام ثاني اثنين في تاريخ الدعوة إلى الله، فقد رد رَسَنِ الإسلام على غربه، وجمع الله به ما تفرق، ولمَّ به ما تشعث في كارثة الكوارث، بفراق رسول الله ﷺ دنيا الناس إلى الرفيق الأعلى، ثم انبعاث الفتنة القاصمة، فتنة الردة، والمسلمون من باهظ صدمة الكارثة في ذهول مذهل، ومن مفاجأة الفتنة كالغنِم المُطَيَّرة في الليلة الشاتية.

وفي هذا الإطار تتوارد درجات سائر الصحابة في تفاوتها منزلة، وهم في جملتهم أبر الناس إيمانًا، وأهداهم قلوبًا، وأعلمهم بمعالم الإيمان وموجباته، وأرشدهم طريقة، وأسدهم منهجًا، وأحسنهم سمتًا، وأعرفهم بالله تعالى، ومن تبعهم في إحسان التلقي علمًا وعملًا، ومضى على سبيلهم من

سائر المسلمين في صدق اليقين، والدعوة إلى الله، وإخلاص العبودية له، كان حظه من منازل الإيمان على قدر ما عنده من العلم والمعرفة.

إيمان النبي ﷺ إيمان شهود:

والتلقي عن الله -عز شأنه- بالوحي مرتبة من مراتب الإيمان، قد تكون أعلى مراتب الشهود التي تبلغ بصاحبها أرفع منازل القرب، بل هي أرفع هذه المراتب على الإطلاق حيث يشهد المتلقي عن الله حقائق الموجودات مسطورة في سجل الغيب مشدودة بأسباب المخلوقية إلى أفق الخالقية، فيؤمن بها إيمان من يشهد وجودها بروحه وعقله، وحسه ووجدانه إيمانًا يبدو فيه الاختيار كالاضطرار، والتفصيل كالإجمال.

ومن هنا صح عن النبي ﷺ فيما يرويه الحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ﴾

(البقرة: ٢٨٥)

على النبي ﷺ قال عن نفسه الكريمة: «حُق له أن يؤمن» وفيما يرويه الطبري عن قتادة قال: ذكر أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «ويحق له أن يؤمن». وجماع ما يمكن تنوُّره من هذا الحديث في روايتيه -وراء ما يطوي من أسرار تعجز الأقلام عن تصويرها- أن قوة روحانية النبي ﷺ بعد ميلاد رسالته بلغت من الشفافية والاستجلاء مرتبة

انفـرد بها النبي ﷺ في الاطلاع علـى حقائق الموجودات في الملأ الأعلى، حيث منازل شهودها، وذاك هو الإيمان الذي لا يحتاج إلى برهان؛ إذ ليس وراء يقين الشهود يقين.

فإيمـان النبي ﷺ برسـالته، وتقديره لعظمتهـا، وعرفانه بأثقال أعبائها هو الأسـاس الذي يقوم على دعائمه بناء رسالته الخالدة، ولا أسـاس لها غيره، وقد بلغ النبي ﷺ بإيمانه أعز وأرفع مراتب المرسلين.

أخـرج ابـن أبي حاتم عـن حكيم بن جابر قـال: لما نزلت ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾... الآية قـال جبريل للنبي ﷺ: «إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك، فسل تُعطَه».

وهـذا الإيمان هـو القوة التي أمد الله تعالى بها رسـوله ﷺ منذ ميلاد رسـالته، في أول لقاء يقظي لجبريل أمين الوحي في غـار حراء، ليقويه ويقدره على تحمل أعباء رسـالته، فحملها مؤمنًا بها أشد وأقوى ما يكون إيمانٌ، مغتبطًا بفضلها أعظم ما يكون اغتباط، وقام بأعبائها صبورًا شـكورًا، صفوحًا كريمًا، وفيًا بعهدها وما يجب لها، دءوبًا على تبليغها ونشر هدايتها.

وإدخال الأمة مع رسـولها في إطار الإيمان بأعباء الرسـالة؛ ليسـلكها معه في رياض نهجه في رسـالته حفـاوة بالغة بهذه الأمـة، وتكليفٌ لها تكليفَ رسـولها فـي وراثتها له في القيام بواجب الدعوة والتبليغ.

ونهج رسـالة محمد ﷺ يطالب الرسول أصالة والأمة وراثة

بتغيير حياة العالَم كله فـي عقائده وتعبداته وأخلاقه، ونظمه الاجتماعيـة، وطرائـق عيشـه، وروابـط أفـراده وجماعاتـه، وأممه وشـعوبه، وأنظمة حكمه، ومناهج سياسته، وتبصيره بحياته وما فيها من انحرافات، وتوجيهه إلى مسالك الهداية، وإرشـاده إلى منائـر العدالة، وعقـد أواصر الإخـاء والمحبة، والتواسـي بين سائر أبناء البشرية، وتوجيه الإدراكات العقلية في انطلاق متحرر إلى آفاق الكون على اتسـاع مداه؛ لتكشف عن آيات الله في عناصر هذا الكون وتماسـك ذراته ومعرفة ما أودع الله فـي كل ذرة منهـا من خير ونفع للبشـرية؛ لتتخذ من هذه المعرفة معراجًا إلى معرفة كمالات الله.

عوامل ارتياع رسول الله ﷺ:

ومن هذا التكليف الذي حمل عِبئه رسـول الله ﷺ وحده فـي حياته، منفردًا بالقيـام بأدائه، مؤمنًا بـه أقوى ما يكون إيمان بعقيدة، وأرسـخ مـا تكون عقيدة آمن بهـا صاحبها، إيمان مشـاهدة وشعور، وإدراك امتزج فيه عمل الحس بعمل العقل، وإشـراق الروح بنور القلـب والوجدان، مؤيدًا بنصر الله، وبالقلـة الصابـرة المجاهـدة من المؤمنين السـابقين، الذين اتخذوا من إيمان رسـول الله ﷺ معراجًا إلى السـمو، استعذبوا فيه ما رمتهم به الحياة من بلاء الفوادح- يتجلى سر ما اعترى رسول الله ﷺ أول ما فوجئ بمعالم هذا التكليف، من رجفة فؤاده، ورعدة بوادره، وخشـيته على نفسه من كل

أثر رجع به من مفاجأة الغار إلى بيته وأهله ومأنسه، كما جاء في روايات الحديث، وهو ﷺ على يقين فوق كل يقين أنه نبي مرسل من عند الله لكافة الإنسانية في مشارق الأرض ومغاربها.

وفي بعض ما وقع له في هذه المفاجأة من عظائم الأحداث، بله جميعه ما يجعله جديرًا بأن يُحدث هذه الهزة العنيفة في كيانه البشري ﷺ.

العامل الأول: مفاجأة الملك على صورة لم تعلم حقيقتها بادئ الأمر:

فالمفاجأة بالملك في خلوة الغار على صورتها الجاهدة المُجهِدة، التي لم تعلم حقيقتها، والنبي ﷺ مستغرق في سبحات تعبداته بالتفكر في جلال الله وعظمة ملكه وملكوته، وبديع خلقه، وعجيب صنعه، وما احتف بها من شدائد الغتّ، أو الغط، الضاغط، ببالغ عصراته، وتكراره بصورة متناهية في العنف إلى أقسى ما يطيقه احتمال رسول الله ﷺ حتى كان يجيبه بما أجابه به عن استقرائه، افتداء منه أن يعود إليه بمثل ما صنع به - حَرِيَة أن تُحدِث من الآثار على بشرية النبي ﷺ ما أحدثت مما لم يمس روحانيته ومدارك عقله بشيء قط، فقد كان وعيه لما ألقي إليه أكمل ما كان، وشعوره بما حدث له أتم ما كان.

العامل الثاني: استحضار أعباء تبليغ الرسالة:

واستحضار رسول الله ﷺ أعباء ما كُلِّفَه، وأثقال ما ينتظره في تبليغ رسالته إلى الخلق، التي لم يكن حينئذ قد بلغ تصوره نهايات جلالها، وعظمة امتدادها في عمومها وخلودها، وفي طبيعة عناصرها، وسائر مقوماتها، وضخامة آثارها في توجيه الحياة، وتغيير أحوال الأفراد والجماعات، والأمم والشعوب، التي أصبحت كلها مدعوة إلى الإيمان برسالته؛ لتكونَ دستورهم المحكَّم في كافة جوانب حياتهم- حري أن يُحدث من الهزة في كيانه البشري ما أحدث، وهو ﷺ نهد[١٥] وشب، وعاش حياته كلها قبل مبعثه، ثم نبِّئ وبعث رسولًا بين قوم كانوا أبعد ما يكونون عن الاستجابة إلى دعوته، وقبول هدايته، والإيمان برسالته، التي تتعارض كل التعارض، وتتناقض أشد التناقض مع ما كانوا عليه من الانغماس في رذائل الوثنية، وجهالة البلادة العقلية، وفساد التفكير، ومهانة الشرك، وشرور المظالم، وبأو العنجهية، وجبروت الطغيان، وتفكك الروابط الإنسانية، وتحلل الوشائج الاجتماعية وسفك الدماء لأتفه الأسباب، ونهب الأموال اغتصابًا، وانحلال الأخلاق، وانتشار الرعب غلابا، والانحطاط الاجتماعي، وضراوة البؤس وشراسة الفقر، وضراعة الذل خوف الاستبداد، وذل الضراعة خشية الطغيان، واستعباد الضعفاء، واستذلال العاجزين،

(١٥) نهد: بمعنى شبَّ أي بلغ سن الشباب. (المجلة)

واستغلال المحتاجين، والتعصب القبلي، وتغطرس الكبرياء فيمن يملكون حطام الدنيا من الأموال والمتاع، وشيوع عبية الجاهلية ومذامها، والتفاخر بجِيَف الآباء والأجداد، والتعظم برذائل الأخلاق، يقتلون أبناءهم خشية الإملاق، ويمنعونهم أن يؤاكلوهم خشية الفقر، يئدون البنات، ويقتلونهن أحياء على أبشع صورة تسمح بها أغلظ الأكباد وأجمد القلوب، خيفة العار، زعموا، يأكلون الميتة والدم وخشاش الأرض من الخنافس والجعلان والديدان، يجعلون لله تعالى ما يكرهون، وتصف ألسنتهم الكذب، إلى غير ذلك من أسواء الجاهلية وشرورها ومفاسدها التي سجلها التاريخ.

وعموم رسالة محمد ﷺ يقتضيه أن يعد نفسه لمعرفة كافة الأمم أفرادًا وجماعات في أرجاء الأرض، معرفة علم وخبرة، يعرف عقائدهم، وأخلاقهم، وعوائدهم ونظمهم الاجتماعية، وطرائق عيشهم وتعاملهم، بل يقتضيه أن يعرف مداخل نفوسهم وطبائعهم؛ ليكون تبليغ رسالته إليهم، ودعوتهم لهدايتها، وتطبيق تشريعاتها مُلائمًا لما يجب أن يكونوا عليه في ظل هذه الرسالة والإيمان بها؛ حتى لا تكون هناك نفرة تباعد بينهم وبين الاستجابة لها.

وليس من اليسير على من يدعو إلى إصلاح الحياة إصلاحًا جذريا في الأمم والشعوب، يبدأ من الأساس، من تصحيح العقيدة بتوحيد الله، وإفراده بالتعبد له تعالى، وتغيير النظم

والأخلاق، وإقامة موازين العدالة والمساواة، وبث روح الثقة والإخاء، وتحقيق المحبة والمواساة بين الناس- إخراج الأمم والشعوب مما رسخ في طبائعهم، وقامت على دعائمه حياتهم سنين وأحقابًا، من العقائد والأخلاق والنظم، وإبدالهم به محاسن الشيم والفضائل؛ إلا إذا كان الداعية لهذا الإصلاح العام الشامل على أكبر قدر- يسمو به فوق أقدار من يدعوهم إلى رسالته- من الحكمة، والحنكة، والعلم، والخبرة بالنفوس والطبائع، مؤيدًا بقوة قاهرة لقوى الحياة، قويًا في نفسه على تجرع مرارة الصبر، صبورًا على تحمل أفداح ما يلقى من بلاء وإيذاء، عليما بما سيلقى في سبيل دعوته مقدرًا جسامة ما يلقى، معدًا له ما يقابله في مواجهة إيجابية، من غير عزلة وتنحٍّ عن ملاقاة الأحداث.

حالة المجتمع البشري خارج الجزيرة العربية:

والذي وصفنا من حال قوم رسول الله ﷺ، من دنا منهم ومن بعُد، لا يمثل إلا أقل القليل من أحوال غيرهم من سائر الأمم والشعوب الذين عاصروهم، فكانوا أسوأ حالًا من قومه الذين نهد بين أحضانهم، ثم بعثه الله فيهم رسولًا إلى الناس جميعًا برسالة عامة خاتمة خالدة، فأولئك كانوا أفسد عقيدة، وأحط أخلاقًا، وأعوج سيرة، وأبعد من الخير والصلاح طرقا؛ لأن هؤلاء البعداء أضلهم الله على علم، فهم أشد عنادًا، وأقسى قلوبًا، وأكثر غرورًا، وأعمق في الباطل أثرًا، وأكثر في الكفر جدلا، وآنس بالفجور،

وآلف للمظالم والشرور. أولئك شر مكانًا وأضل سبيلا.

ففي الشرق كان الفرس وزندقتهم الإباحية، وعبوديتهم للأباطرة، وكفرهم المغرور، وحضارتهم المادية، ووثنيتهم المتهاوية المتهدمة، في بقايا باهتة من الحكمة العقلية التي تناقلوا ألفاظها عن حكيمهم زرادشت وأضرابه ممن عاصره أو سبقه، ولكنهم ضلوا عن معانيها وأهدافها.

وفي الغرب الرومان ونظامهم الاجتماعي القائم على الإقطاع الفظيع، والاسترقاق الشنيع، في عقيدة كافرة، يغلفها الغموض وتحوطها الظلمات، مع شيوع الترف الفاجر، إلى جانب الفقر المهلك في ظل من التقنين الجائر، والتشريع المستعبد الظلوم.

ووراء هاتين الدولتين أو الأمتين- اللتين كانتا تتداولان سلطان الحكم في حياة الناس- قطعان من البشرية منتشرة هنا وهناك في الشرق والغرب لا تستهدف من حياتها شيئا، تعيش وكأنها لا تعرف الحياة ولا تعرفها الحياة، أشبه بسائمة الأنعام في مراعي الصحارى والوديان.

فما عسى محمد ﷺ يصنع بهذه المجتمعات الإنسانية الشاردة عن حظيرة الهداية الإلهية، الغارقة في بحار الضلال، السادرة في ظلام الغواية؛ لينقلها من حال ضلالها إلى هداية رسالته، وهو ﷺ وحيد مفرد، لا يجد إلى جانبه سماعين لكلمة الحق، كلمة الله، قادرين على نصر الله ورسوله، مهتدين بهدى

اللّٰه وهدى رسـوله؟ وما تُغنـي القلة القليلة المسـتضعفة التي سـبقت إلى الإيمان به وبدعوته، وهم يسـامون سـوء العذاب ولا يسـتطيعون الدفع عن أنفسهم، فضلا عن نصرة عقيدتهم ورسالة رسولهم ﷺ.

موقـف المجتمـع فـي الداخـل والخارج من رسـالة الإسلام:

وليت هذا المجتمع الشـرير الفاسـد وقـف منه ﷺ موقفًا سلبيًا، فكف عنه وعن الذين آمنوا به -على خوف من قومهم- يـده فلم يـؤذه، ولم يؤذهم، بـل إنه ﷺ وجد عنـادًا جاحدًا، وجحـودًا عنيدًا، واسـتكبارًا في الأرض بغيـر الحق، ومقاومة جائـرة، وتألبًا ظالمًا، وطغيانًا ضاريًا، وعداوة شرسـة، ولددًا كافـرًا، وخصومـة فاجـرة، وإعراضـا مدبرًا، كأن فـي آذانهم وقـرًا، وكأن الحق والهدى عليهـم عمى، يثنون(١٦) صدورهم ليستخفوا منه، صم بكم عمي فهم لا يعقلون.

أهداف الرسالة الخاتمة:

ورسالته ﷺ تقوم على أساس تقويض بنيان الوثنية بجميع صورهـا، وكافة أشـكالها -وثنية الأصنام والأحجـار، ووثنية التماثيل والأوثان، ووثنية الحيوان والأشجار، ووثنية الشموس

(١٦) يثنـون صدورهم: المراد يطوون قلوبهم علـى العداوة. انظر أوضح التفاسير. (المجلة)

والنجوم والأقمار، ووثنية الرهبان والأحبار، ووثنية الملوك والأباطرة، ووثنية الزعامات والرياسة، ووثنية الاستبداد في الحكم، ووثنية المشْيَخات وتقديس الأشخاص، ووثنية التقاليد والوراثة، ووثنية المال والثراء الكفور، ووثنية الترف والانحلال، من كل ما يصرف القلب والعقل عن معرفة جلال الله، ويظلم الروح فلا ترى نور الله- لتبدلهم بكل ذلك عقيدة التوحيد الخالص لله تعالى، فلا يعبد سواه ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ﴾ (الزمر: ٣)

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تقف حاجزًا قويا يحول بين كافة الناس في أرجاء الأرض وبين رذائل الأخلاق المنتشرة في مجتمعاتهم، لتحويل هذه الرذائل إلى فضائل إنسانية، يحيون بها، ويعيشون في ظلالها، وتحيل تفكككهم الاجتماعي روابط أخوية، تجمع كلمتهم على العدل والمساواة في الحقوق والواجبات، يتراحمون بها ويتواسون، ولا بد لها أن تخرجهم من ظلمات الجهالة الفكرية، وخرافات الأساطير، وفراغ الحياة العقلية إلى نور العلم والمعرفة، ونهوض العمل الجاد الذي يملأ فراغ الحياة بكل خير.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تثير في عقول الناس حركة متحفزة لتبدل الجمود الفكري ثورة عقلية، تنهض بالعقول

والأفكار إلى آفاق الكشف عن أسرار الكون وما أودعه الله فيه من عبر وآيات وأسرار.

ولا بد لرسالة محمد ﷺ من أن تطفئ ما يشتعل بين الناس من نيران الفتن والحروب بالقضاء على عواملها وأسبابها من التنافس المتظالم على وسائل العيش من أسوأ طرائقه بغير عمل شريف ولا كسب كريم، فتوجههم إلى التغلب على البؤس والفقر بالعمل الجاد الكريم في شتى مظانه الطيبة.

ولا بد لها أن تغرس في النفوس حب العدالة الاجتماعية، فيعرف كل فرد حقه وواجبه، وتعرف كل جماعة حقها وواجبها، وتعرف كل أمة كرامتها، وتعمل جاهدة على المحافظة عليها، وحمايتها.

ولا بد لها من تربية الناس على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، بالعلم والعمل، والقدوة الحية التي يرى فيها المثل الأعلى للهداية والإصلاح حتى تقوم الفضائل بين الناس مقام القانون.

تمَثُّل هذه الأعباء في خاطر رسول الله ﷺ كان سببًا فيما وقع له من الارتياع:

هذا التصور الذي ملأ خواطر رسول الله ﷺ لعبء الرسالة، وضخامة مسئولياتها -إلى جانب مفاجأة الملك في الغار، وما حف بها من شدائد- هو الذي بعث في نفس رسول الله ﷺ الانفعال الذي هز كيانه فرجف منه فؤاده، وأُرعدت بوادره،

وخشـي على نفسـه بعد ارتياعه مـن المفاجـأة الملائكية ألَّا تقـوى بشـريته التي لا بد له من أن يواجه النـاس بها في تبليغ دعوته على تحمل أعباء ما شرفه الله به من رسالته.

وقـد تمثـل في خاطـره ﷺ ما لا بـد له من التعـرض له في سـبيل قيامه بحق دعوته مـن عداوة الذين جعلوا من الشـرور ومفاسد الحياة عدتهم وعتادهم، وقد يكون دار في خلده ﷺ تسـاؤل مع نفسـه بعد هذا التصور الضخـم، المتزاحم بصور الأحـداث، هل تقوى طبيعته البشـرية التي يواجـه بها الناس في دعوتهم إلى الاسـتجابة للإيمان برسالته وتقبل هديه على تحمل ما يصيبه من فوادح البلاء والمحن؟

وهـل يسـتطيع أن يصبـر على ما يلقـى مـن أذى، يبلغ به مـا يبلغ في سـبيل تبليغ رسـالة ربه إلى كافة النـاس في أرجاء الأرض؟ وهل يسـتطيع أن يدافع الذين يقفون في سبيله -وهو ماض في دعوته إلى الله- معوقين سـير رسـالته؟ وهل يستطيع أن يقـاوم الذيـن يقاومون رسـالته بـكل ما يملكـون من قوى شريرة ظالمة؟

تصوير وتفسير ارتياعه ﷺ وخشيته على نفسه:

كل ذلـك منـذ اللحظـة التـي فَجئَه فيهـا الحق، وهو في غـار حراء، فجاءه الملـك فيما لم يُعلَم من الصور والشـكول والأحـوال، وبغتـه بطلب القـراءة والغط ثلاث مـرات، حتى بلغـت منه مـا بلغت من الجهد، إلى تصـوره ﷺ لعبء عموم

رسالته الذي توالت عليه نصوصه وأوامره في كثرة من السور المكية السوابق، فكانت من أول الأمر مقصورة التبليغ، مرعية الأعباء، وتصوره لحالة المجتمع البشري الخاص بقومه، والعامّ في أرجاء الأرض، الذي يوجه إليه دعوته، ويبلغه رسالته، وتصوره ﷺ لما يجب عليه من القيام بحق تبليغ رسالته، وما يجب أن تحققه هذه الرسالة في حياة المجتمع من إخراجه من ظلمات الضلالة إلى نور الهداية- هو الذي رجف من أجله فؤاد رسول الله ﷺ وهو الذي أرعدت من تصوره بوادره، فرجع بما حملت نفسه الكريمة من آثار ذلك كله إلى بيته، وزوجه الأمينة، وزيرة الصدق، ومأنس الوفاء، يبدي لها ما ساور نفسه ودار بخلده، وما رأى وما سمع، وما سيلاقي في غمرة حياته الجديدة، حياة النبوة والرسالة بكل ما فيها من محن وشدائد وأهوال تذيب رواسي الجبال.

وهذا هو ما خشي على نفسه منه ﷺ؛ فقد أرعبته مفاجأة الملك، وهو ﷺ في سكون خلوته، وهدوء متعبده، وسبْح فكره في ملكوت الله، واستغراق روحه في أنوار مطالعة بدائع صنع الله، فهزت هذه المفاجأة بشريته ﷺ هزة عنيفة، وحق لها أن تهزها؛ لأن اللقاء المفاجئ بين طبيعتين بينهما غاية التباين في عناصر تكوينهما لا يمكن أن يتحقق دون مظهر من مظاهر عدم التكافؤ في قوى الطبيعتين ومجلى صور لقائهما.

فإحدي الطبيعتين المتلاقيتين لقاء مُغافَصةٍ[17] روحانية عالية خالصة، لها في الملأ الأعلى وعالم الروحانيات مكانها الأسمى، ومقامها الأعلى، هي طبيعة الروح الأمين جبريل عليه السلام الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسۡتَوَىٰ﴾ (النجم: ٥، ٦) ووصفه بـ ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٍ﴾. (التكوير: ٢٠)

والطبيعة الثانية بشرية، لها خصائص الطبائع البشرية المادية، بروحانيتها المقيدة بخصائص البشرية المادية، وهذه الروحانية هي مبعث الحياة في الطبيعة البشرية، تمدها بألوان من خصائصها الروحية في الإدراك، والتفكير، والشعور، هي طبيعة محمد بن عبدالله ﷺ الذي وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (التوبة: ١٢٨)

وقد حفَّ بهذه المفاجأة أمور من شدائد هذا اللقاء التي لا تطيقها طبيعة بشرية مهما كانت قوتها في دائرة بشريتها، كل أمر منها بمفرده حري أن يفزع ويرعب أقوى القوى البشرية، وهي قد اجتمعت على محمد ﷺ في مفاجآت متتاليات متتابعات عرف منها أن الله تعالى اصطفاه رسولا إلى الناس كافة؛ ليخرجهم من ظلمات حياتهم المتراكمة في

(١٧) المراد فجأة على غير موعد. انظر جمهرة اللغة. (المجلة)

حظائر الشرور والفساد إلى نور الهداية والرشاد.

وفي غمرة هذا الفزع الطبيعي، وقد تيقن محمد ﷺ اصطفاءه للرسالة العامة الخالدة، استوعبت مداركه وإحساساته ومشاعره تصور أعباء القيام بحق ما اختير له رسولا، فخشي ألا يقوى على القيام بحق تبليغ رسالته، وخشي أن يشغله ما سيقع بينه وبين الناس حين يدعوهم إلى الله وإلى هديه -وهم على ما هم عليه من ضلالة ضالة- عن مطالعات تجليات شهود جلال الله والاستغراق في أنوار جماله العلي، بعدما تذوق بروحانيته الخاصة الوليدة في جو المفاجآت، بميلاد رسالته لذائذ هذا الشهود.

فرجف فؤاده، وأُرعدت بوادره، واهتز كيان بشريته، وأخذته سبحاتٌ فكرية في التطلع إلى فضل الله ورحمته يلتمس في حناياها برد عين اليقين، وبتنزل إنعام الله عليه بالعون المسدد والنصر المؤزر، والنجح المؤثل.

***

لا يُفسر كل ما يتعلق بالنبوة والوحي إلا في دائرة عصمة الأنبياء عليهم السلام:

فكل ما كُتب، وكل ما قيل في بيان أسباب رجفة فؤاده ﷺ وإرعاد بوادره، وكل ما قيل في تفسير ما أبدى لزوجه الأمينة الوفية السيدة خديجة حين عودته إليها من متعبده الذي حدث له فيه ما حدث، من خشية على نفسه غير ما قدمناه وما يجري

مجـراه في الحفاظ على قداسـة النبوة وجلال الرسـالة، كلام لا يليـق ولا ينبغـي أن يدَّون في سـجل نبـوة محمد ﷺ خاتم النبيين، وسـيد المرسـلين، ولا يليـق ولا ينبغي أن يكتب في صحائف رسالته الخالدة.

كمـا لا يليق ولا ينبغـي أن يروى الكثير مما قيل تفسـيرًا لأحـداث بدء الوحي، وميلاد الرسـالة الخاتمة الخالدة مضافا إلى الأحاديث النبوية، تزيدًا بشـيء لم يثبت عن النبي ﷺ أنه قاله أو حدَّث به عن نفسه، مهما يكن شأن قائله، وراويه.

وهـذا موقف ضنـك، صعب المرتقـى، زلـق المنحدر، لا يعـرف ما دار فيه إلا صاحب شـأنه محمـد ﷺ، فإما علمٌ عن يقين، وإما صمت أمين.

وفـي بعض مـا قيل هنا كلام لا يقوله مـن يرجو لله وقارًا في شـرف النبـوة عامة، ونبوة محمـد ﷺ خاتـم النبيين خاصة، ولا يقولـه مـن يقدر جـلال رسـالات الله حق قدرهـا، ويعرف للمشرَّفين بها من المصطفين الأخيار مكانتهم عند الله.

وقد تحسن المقاصد والنيات، وتخطئ الأفكار والتصورات، وأغـلاط الأكابرِ كبائرُ معفوة، حملًا لها على سـلامة القصد، ولكـن لا يجـوز -دينا وعقـلا- أن تترك هذا الأغلاط تمشـي إلـى عقول الناس وقلوبهـم فتهز عقائدهم، وتعـرُّض إيمانهم لأعاصير الشكوك والريب، وتفتح للمتقولين على الله ورسله، الجاحديـن للديانات من أعداء الحق والخير، الحاقدين على

رسالة الخلود، الخاتمة لرسالات السماء، رسالة محمد ﷺ وما أكثرهم في حرد البهتان -أبواب المطاعن(١٨)، والأباطيل، ومنافذ لتشكيك الذين لم تنفذ عقولهم إلى أعماق التفقه في فهم رسالات السماء، من الشباب الغض الذين لم تتح لهم دراسة دينية واعية، من أنصاف المثقفين الذين أخذوا ثقافتهم عن الملاحدة الملفقين.

فالنبوة أجل مراتب الحياة الإنسانية، وأعظم منازل المقربين عند الله، والله تعالى في جلال عزه وكَبيراء قدسه لا يصطفي لنبوته ورسالاته من الناس إلا أكملهم عقولا، وأقواهم نفوسا، وأضوأهم أرواحا، وأنورهم قلوبا، وأثبتهم جأشا، وأقدرهم على القيام بحق ما اختيروا له من النبوة والرسالة، فلا يمكن أن يعرِّضهم لما يخدش كمالاتهم البشرية، أو يمس من قريب أو بعيد مشاعرهم وإحساساتهم، أو ينقص من أقدارهم في خصائص البشرية السوية، في استقامة الخَلق والخُلق، وحسن العمل، ونظافة السلوك، وطهارة الباطن؛ لأنهم القدوة التي أمر الناس بمتابعتهم في جميع ما يصدر عنهم مما يدخل في دائرة التكاليف الشرعية، فلا يجوز مطلقا أن يصدر عنهم أو ينسب إليهم ما يجعل الاقتداء بهم شرخا في بناء الاستقامة السلوكية، ويجعل شرائع الله ورسالاته عرضة

(١٨) الحرد: القصد. انظر الصحاح. (المجلة)

لطعن الطاعنين، وانحراف المنحرفين، ويشبِّه على الناس طرائق الاقتداء في الخير والهدى والرشاد.

رسالة أكمل الأنبياء أكمل الرسالات الإلهية:

ورسالة أكمل الأنبياء محمد خاتم النبيين ﷺ أكمل رسالات الله إلى خلقه، فلا يمكن لمن يعرف لهذه الرسالة الخالدة قدرها أن يتصور في المرسل بها، وحامل أمانتها أن يتعرض لما يمس كمالات بشريته، ولا أن يمس أي جانب من جوانب شخصيته في أطوار رسالته وتكاليفها.

وفي قول الله تعالى:

﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾

(الحج: ٧٥)

عقيب قوله تعالى:

﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

(الحج: ٧٤)

إشارة لماحة إلى أن تجويزَ ما يمس قدسية رسالات الله في أشخاص حملتها من المصطفين من الناس بعيدٌ أقصى البعد عن معرفة جلال الله، وقدره -سبحانه- حق قدره في علمه بحال من هم موضع حفاوته، واختيارهم سفراء بينه وبين خلقه، يبلغونهم رسالاته، ويدعونهم إلى معرفته وتوحيده والعمل بأحكام شرائعه؛ حياطةً لأقدارهم،

وحفظًا لكمال ما كمَّلهم به من أفضل الفضائل وأكمل الكمالات.

فما بالنا برسالة أكملهم كمالا، وأفضلهم فضلا، وأعلاهم قدرا، وأشرفهم شرفا، وأقربهم قربا، وأرفعهم منزلة، وأعلمهم بالله، وأتقاهم لله، وأخشاهم لله، وأكرمهم على الله، وأعزهم عند الله وأهداهم سبيلا، وأعمهم رسالة، وأشملهم دعوة إلى الله، وأحكمهم حكمة، وأيسرهم هدى، محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين وسيد المرسلين.

الفهرس

محمد ﷺ بين ميلادين (ميلاد بشرية وميلاد رسالة) ٣

العلم هو العنوان الأول في رسالة محمد ﷺ ١٠

تحقيق روايات بدء الوحي ١٥

خلوة الغار كانت إعدادًا لميلاد رسالته ٢٩

بدء رسالة محمد ﷺ كان ميلادًا روحيًا جديدًا لحياته وحياة أمته ٧٠

كمال بشرية محمد ﷺ كان مهدًا لميلاد رسالته........٧١

ميلاد رسالة محمد ﷺ كان ميلادًا للحياة ٧٥